قراءات ومشاهدات

ثروت أباظة

قراءات ومشاهدات

تأليف
ثروت أباظة

هنـــداوي

قراءات ومشاهدات

ثروت أباظة

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٥ ٢٥٢٦ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٢.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ ثروت أباظة.

المحتويات

الأدب والبشرية	٧
خواطر ونقد	١١
لمحة عن ابن الرومي	١٥
سر الكلمة	١٩
أم لأمر فيك تجديد	٢٣
لا يُصلح العلم فوضى!	٢٧
يُفتقَد البدر	٣١
السيف والذهب	٣٥
ماذا فعلتم بأبيكم؟	٣٩
خطاب وتعليق	٤٣
لكل عصر جبرتي	٤٧
الأشجار والأعشاب وصالون العقاد	٥١
من فيض الكريم	٥٥
قراءات ومشاهدات	٥٩
بين الخطيئة والغفران	٦٣
المجتمع والأدب والسياسة	٦٧
سيدة اللغات	٧١
لغة العرب لغة الثراء	٧٥
تدريس العربية بالعربية	٧٩
الكاتب حق	٨٣

معذرة ... شكسبير ٨٩
لو .. حرف امتناع الوجود ٩٣
حياة من السير ٩٧
أما نحن، فلا نعجب ١٠١
تتغير الدنيا ولا تتغير ١٠٥
وإن خالها تخفى ١٠٩
إسلام وشيوعية؛ لا يلتقيان ١١٣
تعقيب على رد ١١٩
أيها التاريخ ترقَّب ١٢٣

الأدب والبشرية

أقرأ في هذه الأيام كتاب الخالدون مائة أعظمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، والكتاب ترجمَه إلى العربية الكاتبُ الكبير الأستاذ أنيس منصور، ومؤلِّف الكتاب مايكل هارت عالم فلكي رياضي.

والكتاب عرضٌ سريع لهؤلاء الخالدين، يمكن أن يكون تعريفًا لهم لمن لا يعرف عنهم شيئًا. أما هؤلاء الذين يعرفون هذه الشخصيات فسيجدون في العجالة التي أوردها الكتاب تذكرةً لهم بهؤلاء الأعلام، والكتاب ممتعٌ في عرضه يهَبُ للقارئ سعادةً ويدفع عنه الملالة؛ حتى إننا لنقرأ ما يعرضه الكتاب فنجد أنفسنا توَّاقين إلى المُضيِّ فيه، ولا نجد عسرًا في عرضه للشخصيات التي قدَّمت أشياء خالدة في تاريخ البشرية في فروع بعيدة عن تخصصات القارئ.

وإنما أثار اهتمامي في هذه الشخصيات ما كتبَه المؤلف عن شكسبير من رأيٍ يدل على أن الكاتب لا يدري شيئًا عن وظيفة الأدب ولا عن قيمته في الحياة، فهو رأيٌ أقل ما يُقال عنه أنه ساذج فطري. عجبتُ كلَّ العجب أن يصدر عن شخص له ما للمؤلف من ثقافة، ثم رددتُ تعجبي وقمعتُ الدهشة حين تذكَّرتُ أن المؤلف عالِم فلكي ورياضي وأولئك قوم في أغلبهم لا يُدركون إلا المحسوسات، ومَن يدرك المحسوسات ولا يُدرك غيرها إنسان جامد الحس، قاصر النظر، سطحي التفكير، وليس هذا الذي أقوله عنهم ذمًّا، وإنما هو وصفٌ لا أظنهم يضيقون به؛ فالذي يتكلم لغة الأرقام ولا يقبل إلا العلم البصري لا يؤمن إلا بما يراه رأْيَ عين لا تتعمق بصيرته إلى عالم الروح وإلى مكامن النفس وإلى دخائل الضمائر ومكنونها.

يقول الكاتب: «وعلى الرغم من عبقرية شكسبير وعظمته المؤكدة فإنه لم يظهر في وقت مبكر من قائمة الخالدين. وقد جاء دورُه متأخرًا قليلًا، لا لأنني لا أقدِّر عظمته وعبقريته، ولكن لأنني أعتقد أن الأدباء والفنانين ليس لهم إلا أثرٌ ضئيل على تاريخ الإنسانية.»

واعتقاده هذا هو الذي أثارني إلى هذا المقال. فالرجل إذن لا يفكِّر إلا تفكيرًا محدودًا. الدليل على ذلك أننا نجده يضع بين خالديه أسماءً أفنَت من الأرواح ما أفنَت، ودمَّرَت من البشرية ما دمرت، واعتبر أن هؤلاء الخالدين في رأيه أعظمُ أثرًا على البشرية؛ فالذي يهدم البشرية عنده يتقدم على الأدباء والفنانين؛ لأنه يعتقد أن الأدباء والفنانين ليس لهم إلا أثرٌ ضئيل على تاريخ الإنسانية.

ولأنه عالِم فلكي ورياضي لم يستطع أن يتخيل لحظة ماذا كان يُسمَّى تاريخ البشرية لو خلا من الأدباء والفنانين.

فلو أن الإحساس بالفن مسَّه من قريب أو بعيد لتخيَّل عالمًا لا أدب فيه ولا فن، ولو أنه أمعن النظر قليلًا في التاريخ لوجد الأدب هو الذي جعل الناس تعرف معنى الحرية ومعنى الشرف ومعنى الوفاء والحب الذي صَعِدت البشرية على هُداه إلى مراقي الإنسانية.

ولو أن هذا الكاتب نفسه قرأ شكسبير وأحسن قراءَته لوجد أن كثيرين ممن اعتبرهم خالدين إنما هم سفاحون أعاقوا البشرية. وإن كان هو قد ذكر ما صنعوه في ظاهر الحياة وسطحها، فإن شكسبير قد غاص منهم إلى الأعماق وكشف خبيئةَ نفوسهم، وجعل الفرد منهم الذي طغَا وتجبَّر وعتَا لا يزيد في حقيقته عن مخبول أو مجنون. وإنه ما ارتكب ما ارتكب إلا لأنه نبَا في تركيبه عن شرف الإنسان وعما ينبغي لأسمى المخلوقات من رحمة وإشفاق بالبشر وعطف على إخوته في الإنسانية، ولو أنه قرأ شكسبير والأدباء الآخرين في لغته وفي غير لغته لوجد أن الإمبراطور الأعظم والملك المتوج والرئيس المتألِّه الذي تهتف باسمه الحشود عن حق أو ضلالة ليسوا عند الأديب إلا أناسيَّ وبشرًا من البشر لا يزيدون عنهم في شيء. وربما كان أولئك الأباطرة والملوك والرؤساء أقل من الناس شأنًا بلؤم الطبع، وخِسَّة المتجه ودناءة الهدف، وربما كانوا أحقرَ من الإنسان بالوسائل الوحشية التي يتبعونها وبالاحتيال وإخفاء الحقائق والبطش الوحشي، بطشًا يبين في أعين أمثال المؤلف من الماديين مبررًا، وهو عند الأدباء الأمناء لا تبرير له مطلقًا. فما يقبل الأديب أن يُهان الإنسان، وما يقبل الأديب أن يستغلَّ شخصٌ ما مهما يكن ملكًا أو إمبراطورًا أو رئيسًا سطوةَ منصبه ليهين الإنسانية، متمثلة هذه الإنسانية في أي فرد مهما يكن مكانه في المجتمع، وما يقبل الأديب أن يكون الفقر مذلة، ولا أن يكون نوعُ العمل مهما يكن شأنه داعيًا للاعتداء على كرامة الإنسان أو على حقه في الحياة الحرة الشريفة.

ولو أن الكاتب قرأ شكسبير أو غيره من الأدباء لعرف أن الخصومة السياسية ورفض الرأي لا يجوز أن يسمح للإمبراطور أو الملك أو الرئيس أن يقمع بالسلطان خصمه أو ينال بالسيف رضاه؛ فما الإمبراطور أو الملك أو الرئيس إلا فردٌ يُخطئ كما يخطئ الناس ويصيب كما يصيبون.

ولو أنه قرأ شكسبير أو غيره من الأدباء لعرَف أنهم يرَون أن الشرف ليس مقصورًا على طبقة دون طبقة، ولا على ناس دون ناس، وإنما هو مشاع بين كل الطبقات لا اختلاف بينهم ولا فارق، فكما يجوز أن يكون ابن الإمبراطور أو الملك أو الرئيس شريفًا يجوز أيضًا أن يكون وضيعًا في خلقه ساقط الكرامة يرتضي لنفسه ما لا يرضاه إلا السفلة والأفَّاقون.

ويجوز أيضًا أن يكون الفقير شريفًا سامق النفس عالي الهمة، ويجوز أيضًا أن يكون ابن الوضيع وضيعًا.

ولو كان قرأ لشكسبير أو لأحد من الأدباء لعرف أن المال الذي أصبح إلهًا في النظرية المادية الشيوعية، والذي هو الإله في النظرية الرأسمالية، ليس عند الكتاب فيما يكتبون إلا وسيلة وما هو بغاية، وأن الناس الذين يجعلون منه غاية هم أرخص خلق الله على الله وعلى البشر.

وإن الغنى لا يجعل الإنسان عظيمًا، وإن الفقر لا يجعل الإنسان حقيرًا، وإنما الإنسان عند الأديب عمله وليس ماله، وخلقه وليس أخلاق ثيابه.

فالأدباء والكتَّاب هم صرخة البشرية في وجه مَن يعادي البشرية، على نور أقلامهم سار الخالدون الذين ذكرهم باستثناء سيدنا محمد ﷺ وعيسى عليه السلام في كتابَيهما، اللذَين جاءهما الهدى من السماء.

وقد اختار الله لأعظم الخالدين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أن تكون معجزته متمثلة في الكلمة، ولكن العالِم الفلكي الرياضي لا يستطيع أن يفهم هذا المعنى ولا أن يُقدِّرَه، ومن أين له أن يعرف قدرَ القرآن الكريم وهو لا يتحدث لغته.

إذا كان المؤرخون هم الناقلون أحداثَ التاريخ إلى الأجيال، فإن الكتَّاب هم الناقلون منائر القيم إلى كل الأزمان.

وإذا كان المؤرخ يُثبت الأحداث، فإن الأديب يبلور روح العصور إلى العصور.

وإذا كان هناك مَن يكفُر بقدر الأديب فهو جاهل، أو غبي، وكلاهما شرٌّ من أخيه.

وإن كان هناك مَن يقول إن الأدباء بما يملكون من أقلام يعظمون قدر أنفسهم، فإن هذا القائل عميَ عن الحقيقة وانفصل عن البشر؛ لأن الناس هم الذين يُقدِّرون الكُتَّاب ويرفعونهم إلى مراتب الأنبياء والصديقين بما أناروا أزمان البشر منذ الأزل وإلى الأبد.

خواطر ونقد

كم من خاطرة راودَتني في هذا الأسبوع وكم أردت أن أصيح بأقوام أن اسكتوا عن باطلكم حتى يُتاح لنا أن نسكت عن حقنا، فويل لزمان يعلو فيه صراخُ الباطل ويتخافت فيه صوت الحق، وويل لزمان يجعل المشرق غربًا والغرب مشرقًا، ويجعل الهُون مجدًا والمجد هوانًا على أعمدة السموق، وكم قاسيتُ من نفسي، وكم قسوتُ عليها أن تكفَّ عن المضيِّ في هذا السبيل الذي أصبحتُ أَضيقُ بالكتابة فيه زهدًا وإجلالًا للقرَّاء أن أجعلَهم يقرءون عن أمرٍ هم به محيطون، وبعضهم اصطلَى أواره وبعضهم به من آثاره جروحٌ دامية لم تزَل وما أحسب أن دماءَها ستنضب. وكم كففتُ نفسي حتى لا أقولَ ما يعرفه جميع بني آدم أن كرامة الإنسان وعِرْضه هما أثمن ما في الإنسان، وأن الإنسان هو سيد المخلوقات، ولا شيء في العالم يعوِّض الإنسان عن سحق الآدمية فيه، ولا شيء في العالم يعوِّض الشعب عن إذلال وطنه في ساحات الشرف وامتهان عقيدته وهي طريقه إلى السماء.

أيها القلم فلتكفَّ فورًا عن الاسترسال فإني أعلم أنني إذا لم أقمعك بعزم ستمضي لا تقف.

هل بنا إلى ديوانِ شعرٍ جديد ظهر لصديقٍ قريبٍ إلى نفسي قرابةَ أخٍ وحْي ديوانِه معي؛ فإن هذا لا شك أحب إليك من حديث تمقته، وأين حلاوة الشعر من مرارة الأسى.

أما الديوان فهو «لا تسأليني»، وأما الشاعر فهو العالم الأديب الأستاذ الدكتور عبد العزيز شرف، وما عبد العزيز بغريب عن قرَّاء العربية عامة ولا عن قرَّاء هذه الصفحة خاصة فهو من عُمُدها.

هذا الديوان فيض شعور، فهو أشبه ما يكون بلحن جميل متناغم المقاطع عذب، إذا قرأته انتشيت وإذا أعدتَ قراءَته أعجبتَ — اقرأ معي:

كنت ألقاها صباحًا فتلاقيني العشية
ثم تاسو لي جروحي بالأغاني العبقرية
آه من لفظ حبيبي في أغانيها الشجية
آه من جرح قديم قد تولَّت هي رية
وتناءَت ذات يوم مثل أعراض التحية

كم هو جميل قوله مثل أعراض التحية، ولا أحسب أن الدكتور عبد العزيز قد ذكر الأبيات الجميلة عن التحية حين ألهمَته شاعريتُه هذا التعبير الشعري المشرق، أما أنا فتذكرت تلك الأبيات القديمة:

بيضاءُ باكرَها النعيمُ فصاغَها بلباقةٍ فأدقَّها فأجلَّها
منعَت تحيَّتَها فقلتُ لصاحبي ما كان أكثرَها لنا وأقلَّها
فدنَا وقال لعلها معذورة من بعض رقبتها، فقلتُ لعلها

وما أجمل الشعر الذي يذكِّرك بالشعر الجميل. وهكذا استطاع عبد العزيز أن يجعل هذه الأبيات الرائعة تثب إلى خاطري، ونعود إلى الديوان ونمضي بين بساتينه الفواحة العبير، ونقف عند نفثه:

ضاقَت بيَ الدنيا كأني خصمها يا قلب واللقيا طوَتْها الأنجم
صحبي وحبِّي والكرامة كلها مما أعاهد بالوفاء وأكرم
إن الوفاء سجيةٌ لك هل ترى تدَع السجية للشكاة وتحجم
وأنا الذي قد عاقها ومقاله ما زال ينضح بالسلام ويبسم
آثرتُ بالحب ووددتُهم ما بالهم ظلموا ولم أكُ أظلم

إن أجمل ما في هذه الأبيات أنها تجمع بين البساطة الحديثة وبين الأصالة العربية. وأعجب معي لأقوام يُقيمون موازين للجمال من صنعهم ما أنزل الله بها من سلطان. إن الشعر الجميل جميل في كل عصر، وإن أثره هو أثره منذ الجاهلية الأولى وحتى اليوم،

وإنه ليتسرب إلى النفس فيشيع فيها أسمى معاني الإنسانية وأشرفها حتى كان الإنسان يدفُّ بجناحَين ملكًا في السماء بعيدًا عن الأرضية وكل ما في البشر من شرور.

وقد أحسن الدكتور «شرف» صنعًا بذلك الفصل الذي أضافه إلى الكتاب بعنوان «مع النصوص الشعرية» بقلم الدكتور كمال إسماعيل، والفصل من أعمق البحوث التي قرأتها عن الشعر. وحين يتكلم الدكتور كمال عن عبد العزيز شرف يقول في أول حديثه: زعم أحد المثقفين أن الدكتور عبد العزيز شرف رومانسي وتساءل هل نحن بحاجة إلى مزيد من الرومانسيين. وأترك الدكتور كمال إسماعيل يجيب إجابة مفصحة، وأتناول هذه القضية التي يُثيرها بعض النقاد حين يصنفون الشعراء والكُتَّاب عامة إلى رومانسيين ورمزيين وواقعيين فتلك من المضحكات المبكيات؛ فالشاعر أو الكاتب لا يُعير هذه التصنيفات أيَّ التفات، وإنما هو يلتقي مع نفسه ويكتب فنه، وليس يعنيه في قليل أو كثير هذا التصنيف بل إنني أحسب أنه لا يعني أحدًا.

واسمحوا لي الآن أن أقدم رواية قرأتها، فما دمت قد أمسكت قلم الناقد، وطفت به في بحور الشعر فمن حق الرواية عليَّ أن أتناول ربوعها بالحديث، وأنا منها وهي مني على وشيجة من القربى، وعلى آصِرة من الحب لا تجيزان لي أن أنساها إذا أنا ولجتُ من باب الناقدين. الرواية من أعظم ما قرأت في السنوات الأخيرة، وكاتبها الناقد العالم المتمكن العميق الدكتور نبيل راغب، وليس نبيل غريبًا على الرواية؛ فقد مارسها سنوات ناقدًا وأستاذًا دارسًا ثم كتب بعد ذلك عدة روايات فاستطاع أن يفلت من أسوار النظريات إلى ساحات الفن المترامية الأطراف.

وروايته هذه التي قرأتُها أخيرًا هي «درب الشوك»، وقد استطاع نبيل فيها أن يمزج في براعة فائقة بين التاريخ القريب وبين الإبداع الفني حتى لقد ظنَّ كثيرون ممن قرءوها أنها وقعَت، وأنه إنما يروي وقائعَ ولا يُبدع فنًّا. ويوشك كثير من القرَّاء أن يروا كل اسم من أسماء الرواية إلى اسم إنسان عرفه الشعب المصري وذاع أمرُه فيه.

وأشهد أنني لم أقرأ عملًا مشابهًا لرواية الدكتور نبيل راغب قبل هذا، وأشهد أنه وُفِّق غاية التوفيق في هذا المزج الرائع بين التاريخ القريب وبين الفن الروائي.

وأما الرواية من الناحية الفنية فهي شائقة السرد، ولا يزال التشويق من أهم مقومات الرواية وإن رغمت أنوف.

وإنني أهنئ الأستاذ الدكتور نبيل بروايته هذه وأهنئه بلغته العربية الجميلة المتدفقة في طبيعة وفي غير قسر ولا اصطناع، وأرجو أن يضيف إلى مكتبة الرواية كثيرًا من هذه الأعمال الرائعة.

لمحة عن ابن الرومي

كتَب العرب في جميع أغراض الشعر، وكان شعر الهجاء من أهم الأغراض التي نظم فيها الشعراء المتقدمون، وهذا أمر طبيعي لا غرابة فيه فما داموا قد كتبوا في المديح وبالغوا، فما بعجيب أن يكتبوا في الهجاء ويبالغوا أيضًا.

وقد كان العرب يخشَون الهجاء حرصهم على المديح، وبين الهجاء والمديح كان الشعراء يجدون قوتهم أو يجدون ثراءَهم في بعض الأحيان.

وقد جرى علماء التربية أن يهاجموا شعر الهجاء ويُبغِّضوه للناشئة، أرى أن علماء التربية في هذا مخطئون، فبقدر ما يمجد المديح الكرم والخلق الرفيع يبغض الهجاء الخلق الدنيء، ويجعل منه متجهًا مقيتًا وشيئًا لا يجوز للشريف أن ينحوَ إليه، وكما يمثل الوصف والغزل فنًّا رفيعًا تجد الصور فيه تدعو إلى الإبهار والإعجاب.

وأعتقد أن تمجيد الفضل لا بد أن يسير معه في نفس الطريق مهاجمة الشر والنَّيل منه، وكما يبلور المديح الشيم الرفيعة ويُعلي من شأنها يقدِّم الهجاء صورًا فنية رائعة للخُلق الذميم والتصرف المقبوح.

والإنسان لا يستطيع أن يحترم الفضل إلا إذا احتقر الخُلُق الزري والفعل الذميم.

والقرآن الكريم فتح للناس أبواب الأمل في الجنة، إذا هم اتقوا وآمنوا وعملوا عملًا صالحًا، وهدد بالويلات وبالنار تكوي الجُنوب والجِباه فهم فيها لا أحياء ولا أموات إذا كانوا من المفسدين الضالين الآثمين المعتدين.

وكما حبَّب القرآن الكريم إلينا الخير وحضَّ عليه، بغَّضَ إلينا العصيان والفسوق والنكول عن الطريق الأقوم وهدَّدنا بالعذاب الذي لم يعرف البشر له مثيلًا إذا نحن أطعنا أهواءنا ونكصنا عن الهدى والتوبة والإنابة.

ولو شئت أن آتيَ بأمثلة من القرآن لأوشكتُ أن أذكر القرآن كله، لا تكاد تجد سورة واحدة تخلو من آيات كريمة عديدة تهاجم الكفار والمعتدين والظالمين فهم قوم بور، وهم مسرفون، وهم قوم عُمْي عن الحق، وهم لا يفقهون، وهم لا يذكرون، وهم صمٌّ عن النصح بُكْم لا ينطقون بما يعلمون أنه الحق. وهم غير ذلك وغير ذلك كثير.

فالله سبحانه من فوق سبع سماوات لعن المائلين عن الجادة السافلين عملًا، الضالين صراطًا، فمن حق الشعراء بل من واجبهم أن يرسموا للناس الجمال والقبح والخير والشر، ومن حقنا نحن البشر أن نعجب بشعر الهجاء إعجابنا بأي لون آخر من ألوان الشعر.

وربما كان ابن الرومي أروع مَن قال شعرًا في الهجاء في العربية وقد أبدع فيه إبداعًا لا أحسب أن أحدًا ضارعه فيه.

أذكر قوله:

وجهُك يا عمرو فيه طول — وفي وجوه الكلاب طول
والكلبُ وافٍ وفيك غدر — ففيك عن قدرِه سفول
وقد يحامي عن المواشي — وما تُحامي ولا تصول
وأنت من أهلِ بيتِ سوء — قصتُهم قصةٌ تطول
وجوهُهم للورى عِظات — لكنَّ أقفاءهم طبولُ
مستفعلن فاعلن فعولن — مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه — معنى سوى أنه فضول

وأذكر بيته الرائع ولا أذكر معه بقية أبيات القصيدة، فهذا البيت في نظري كفءٌ لديوان بأكمله يقول:

ألَا كريم جزاه الله صالحه — يهجوه عني فبي عن عرضه كسل

وأذكر تلك الصورة السينمائية العجيبة التي يقول فيها:

رأيت الفضل مبتهجًا — يُناغي العيش والسمكا
فأسبل عينَه لمَّا — رآني قادمًا وبكى
فلما أن حلفتُ له — بأني صائم ضحكا

كم يخسر الشعر العربي إذا نفينا عنه الهجاء، إن هذا النفي يحرمنا من لمحات فنية لو تُرجمت إلى الغرب لسارت كلَّ مسار، اسمع ابن الرومي أيضًا يقول:

يُقتِّر عيسى على نفسه وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفَّس من منخر واحد

كيف استطاعت هذه الخاطرة أن تثبَ إلى ذهن ذلك الشاعر العملاق إلا أن تكون العبقرية المتفردة.

ثم اسمع معي ما يقول لباني الدرج:

يا بانيَ الدَّرَج الذي أولى به هدمُ الدَّرَج
بئس البُنا هي في المنَا زل والديار فلا تلج
لا سيما لأبي البنا تِ الناظرات من الفرج
وكذاك أنتم معشرٌ في عود منبتكم عِوَج
لو أنَّ قمل رءوسكم ذات القرون إذا درج
شاء العروج إلى السما ء على قرونكمُ عرج

هذا الاكتمال الرائع في الصورة لا يتأتى إلا لابن الرومي. كيف استطاع أن يصفَ أسرةَ باني الدرج بالقذارة وبأنهم أصحاب قرون، ثم يجمع بين الصفتين في حركة درامية واحدة ... عجيبة.

ولم يكن عجيبًا أن يموت ابن الرومي حتْفَ هجائه؛ فقد هجا أحدهم وربما يكون واحد من هؤلاء الذين ذكرت شعره فيهم. وأرسل المهجو إليه يسترضيه ويدعوه إلى وليمة، وفي سذاجة الشعراء وجهلهم بالحياة يذهب ابن الرومي إلى الوليمة ويأكل وبعد أن يأكل يحس السمَّ يسري في جسمه، ويدرك أن الداعي دسَّ له السم في فطيرة دسمة.

ويقوم ابن الرومي يبغي الانصراف دون أن يقول شيئًا ولكن القدر يأبى له إلا أن يجعله هاجيًا حيًّا وميتًا. فيسأله صاحب الدار.

– إلى أين؟

ويجيب ابن الرومي في استسلام: إلى حيث أرسلتَني.

ويقول الداعي في شماتة: سلِّم لي على أبي.

ويقول ابن الرومي آخر جملة عُرفت عنه في حياته.

– آسف ليس طريقي إلى جهنم.

وبعد فإني أهدي هذه المقالة إلى الأدباء ليستمتعوا بما فيها من فنِّ ابن الرومي وأهديها أيضًا إلى من يلزم من غير الأدباء؟

سر الكلمة

يلحُّ عليَّ في هذه الأيام شاعر المهجر العظيم إيليا أبو ماضي. وقد جعل هذه الأبيات مقدمة لديوانه الخالد «الجداول». وإني سأروي لك الأبيات من الذاكرة فلا تعنف بي إذا أبدلت لفظًا، يقول أبو ماضي:

يـا صـديـقـي أنـه لـو لاك مـا وقـعـتُ لـحـنـا
كـنـت فـي سـرِّيَ لـمَّـا كـنـت وحـدي أتـغـنَّـى
ألـبـس الـروض حـلاه إنـه يـومًـا سـيُـجـنـى
لـيـس نـورًا كـل نـور مـرَّ بـالأعـيـن وسـنـى
قد سكبت الخمر كي نَشْـ ـربَ فاشرب مطمئنًا
واسقِ مَن شئت كريمًا لا تـخَـفْ أن تـتـجـنَّـى
كـلـمـا أفـرغـت كـأسـي زدت فـي خـمـريَ دنـا
فَـهْـي بـالإنـفـاق تـبـقـى وَهْـي بـالإمسـاك تـفـنـى

والقصيدة طويلة، وهي تدور كلها حول هذا المعنى في هذه العذوبة الشفافة، وهذه الروح النورانية التي يتسم بها إيليا أبو ماضي الذي يجري شعرُه في ألفاظ غاية في السهولة واليسر حتى ليحسب القارئ أنه يستطيع في غير عناء أن يصنع صنيعه، وينظم مثل شعره حتى إذا حاول وقفَت دونه أهوال وأهوال ثم انثنى عما يحاول وهو عاجز مذهول.

فإيليا أبو ماضي لم يتبوأ مكانه في الشعر العربي عن صدفة؛ فالفن لا يعرف الصدفة، وإنما يعرف الموهبة، ويعرف العبقرية والشهرة لا تأتي للأدباء بالسعي إليها منهم، وإنما هي التي تسعى إليهم صاغرة طائعة أو مرغمة؛ لأنهم يفرضون أنفسهم على زمانهم وعلى ما يليهم من أزمان ما أبدعوا من فن رفيع لا يتأتى لغيرهم أن يجاريَهم فيه.

ويمتاز إيليا أبو ماضي بطعمته الخاصة به، فتجد لشعره عبيرَه الذي لا يشاركه فيه أحد. وإنك إذا استعرضت عظماء الشعر العربي منذ الجاهلية حتى عصرنا الحديث تجد أن التاريخ لم يُبقِ منهم إلا على هؤلاء الذين تفردوا بين جيلهم، لا يماثل شعرَهم شعرٌ آخر والاستقصاء صعب، ولكن ما لنا لا نحاول عرض أمثلة نصطنع منها نماذجَ سريعة لا تُشكل دراسة مستوفية قدر ما تُشكل شواهد على ما نذهب إليه، ولننظر إلى المتنبي مثلًا فنجد فنًّا رائعًا فيه فحولة إذا احتاج موضوعه إلى فحولة، أو نجد عذوبة إذا تغيَّا العذوبة، فيقول والرواية من الذاكرة أيضًا:

الواهب الندس الهزيز العبقري　　الألمعي الهبرزي الأروعا
متكشِّفًا لعُداتِه عن سطوة　　لو حكَّ منكبُها السماءَ لزعزعا

ويعذب حين يصف شعب بوان ويقول:

وأمواهٌ يصلُّ بها حصاها　　صليلَ الحَلْيِ في أيدي الغواني

ويصف خمائل العنب فيقول:

وسِرتُ وقد حجبنَ الشمس عني　　وجِئن من الضياء بما كفاني
ونلقى الشمس منها في ثيابي　　دنانيرًا تفرُّ من البنان

ويتفلسف في منطق رائع صالح لكل زمان حتى اليوم، حتى إننا إذا قلناه اليوم، ونحن نرى الحروب الدائرة من حولنا لكان سخرية أي سخرية من بني آدم:

يقول بشِعبِ بوَّان حصاني　　أَعَن هذا يُسار إلى الطِّعان
أبوكم آدمٌ سنَّ المعاصي　　وعلَّمكم مفارقةَ الجنان

ونترك المتنبي عملاق العصور إلى قمة مثل أبي تمام فنجد اللغة الفصيحة العنيفة أحيانًا والألفاظ الصعبة والسبك الوعر المضني، ولكن يتخلى عن هذا أحيانًا، ويميل عن هذه الألفاظ ليقول أبياته الشهيرة:

إقدامُ عمرٍو في سماحة حاتم في حِلمِ أحنفَ في ذكاءِ إياسِ
لا تذكروا ضربي له من دونه مثلًا شرودًا في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلًا من المشكاة والنبراس

ويتلقف البحتري هذه الفحولة ويصوغها فإذا هي شعر رفيع الصياغة لا يلحق به لاحق من أبناء جيله، ونسمعه يَصِف أسرة وقع الخلاف بين أبنائها بهذه الأبيات الرائعة:

شواجرُ أرماحٍ تُقطِّع دونها شواجرَ أرحامٍ مَلوم قُطوعها
إذا احتربَت يومًا ففاضَت دماؤها تذكَّرت القربى ففاضَت دموعُها

وفي نفس الصياغة وفي ذكاء لماح وظرف نادر يبلغ المتوكل أن الفرس الذي أهداه إليه مات في اليوم التالي فيقول:

أهديتَني أعجوبة هيَ في العجائب نادرة
فرسًا كأنَّ هبوبَه وشك الرياح الطائرة
في ليلة قطَع المسا فةَ من هنا للآخرة

وتمر السنون وتتعاقب الأيام، ويمر الشعر بيوم نحس ويوم سعود حتى يظهر البارودي وإسماعيل صبري بشارات لمولد شوقي، وتبزغ إلى سماء الشعر شمسٌ جديدة تُلقي نورَها بكل أنحاء العالم العربي حتى اليوم ونرى الشعراء الأفذاذ في إثارة، وفي إثار حافظ وخليل ومطران ومحرم ونسيم، وفي معيَّتهم بشارةُ الخوري وصحابته في لبنان، وبعدهم الجوهري، ومصطفى جمال الدين، وبهجة الأثري، وصحبهم في العراق، وعزيز أباظة، ورامي، وناجي، وعلي محمود طه، وكل شعراء أبولو في مصر، لكلٍّ شاعر منهم رحيقُه الخاص لا يُخطئه ذوق، ولا تغيب نكهتُه على هواة الشعر ومرتادي خمائله وأفوافه.

هؤلاء الشعراء جميعًا مَن ذكرتهم ومن لا تتسع لذكرهم مئات الصحائف فرضوا أنفسهم على العالم الأدبي بما أبدعوا، ولكن من هذا الذي فرضهم أنهم أولئك الذي أحبوا شعرهم، واستعذبوه وتغنَّوا به وأسمعوه أبناءَهم وجيلهم والأجيال التي جاءت بعدهم. فالقرَّاء إذن هم الذين يفرضون الكاتب على التاريخ.

وتسألني لمن أسوقُ هذا الحديث وكأنك لا تدري؛ فإني إنما أسوقه إلى أبنائنا المتلهفين إلى الشهرة دون أن يُعملوا في يدهم القلمَ الذي يُرغم الشهرة أن تسعى إليهم، ماذا قرأ الشبَّان حتى يكتبوا، إن الكتابة لا يمكن أن تبدأ إلا بعد قراءة طويلة متأنية ودراسة وتذوُّق حتى يذوب الأديب في الأدب، ويصبح جزءًا منه لا يتصور الحياة بغيره، فإن الكلمة لا تجري على قلم إنسان يريد أن يتخذ منها حلبة في حجرة أو تحفة يتباهى باقتنائها.

لن يكون كاتبًا مَن لا يصل إلى سرِّ الكلمة، وسرُّ الكلمة لا يتأتَّى إلا لمن يصادقها في إخلاص يبلغ مرتبة التفاني؛ فإن الكلمة لا تُلقي سرَّها لعابري السبيل أو لمن يريدونها أن تكون مجردَ زهرة في أصيص تذبل بعد حين وتُلقَى في الطريق، إنما الكلمة دوحة غناء باقية على الزمان أصولها في أعماق أرض الفن وذؤابتها في سمائه؟

أم لأمر فيك تجديد

يطيب لي ونحن في أعقاب العيد أن أتذاكر هذه الأبيات لإيليا أبو ماضي في قصيدته هدايا العيد:

خرج الناس يشترون هدايا الـ ـعيد للأصدقاء والأحباب
فتمنيتُ لو تساعفني الدنـ ـيا فأقضي في العيد بعض رغابي
كنت أهدي إذن من الصبر أرطا لًا إلى المنشئين والكتَّاب
وإلى كل تاجر حُرم التو فيقَ زقَّين من عصير الكذاب
وإلى معشر الكسالى قصورًا من لجين وعسجد في السحاب
علَّني أستريح منهم فقد صا روا كظلِّي في جيئتي وذهابي
وإلى ذي الغنى الذي يكنز الما لَ ازدياد الذي به من عذاب
كلما عدَّ ماله مطمئنًا أبصر الفقر واقفًا بالباب
وإلى الصاحب المراوغ وجهًا أسودًا حالكًا كوجه الغراب
فإذا لاح فرَّت الناس ذعرًا من طريق المنافق الكذاب
وإلى مَن يسبني في غيابي شرفًا كي يصونه من سبابي
وإلى حاسدِيَّ عمرًا طويلًا ليدوم الأسى بهم مما بي

وفي القصيدة أبيات أخرى اكتفيت منها بهذه الأبيات. وشعر إيليا بطبيعته لا يحتاج إلى تعليق فهو مع إشراقة الديباجة فيه وسلاستها وعذوبتها واضح بيِّن؛ حتى إنني أحسب أن أي شرح له أو تعليق عليه يفسد جماله، ويغض من سموقه. فالشاعر المهجري العظيم

قادرٌ دائمًا على أن يقدم إليك المعنى كاملًا عميقًا في غير حاجة إلى مزيد من تبيان وفي غير حاجة أيضًا إلى تعميق.

ولو كان الشاعر الكبير حيًّا يضنُّ بصبره يقدمه إلى الأدباء والشعراء، وحاول أن يقدمه إلى أُسود أفغانستان، وهي تحارب في إصرار وجبروت ثاني قوة كبرى في العالم والتاريخ. والدولة الغازية التي يدَّعي أشياعها أنهم يبحثون عن السلام للإنسان وعن الابتسامة يقدمونها إلى شِفاه الأطفال تنقض انقضاض الظلم المؤبد بالمال والسلاح على أفغانستان التي لا تملك شيئًا إلا الإيمان بالله الواحد الأحد لا ترتدُّ عن إيمانها إلا بالشهادة عالمة أن في هذه الشهادة أسمى ما يتمناه المؤمنون، وتسوخ أقدام العدوان في بحار من دماء، والضحايا منهم بيدِ المؤمنين أكثر من الضحايا في الشعب المؤمن الذين يقتلهم العدوان بآخر ما وصل إليه العصر البغيض من آلات سفك الدماء، والقضاء على أرواح الأبرياء.

والظلم بقدر ما هو واقع على أفغانستان المؤمنة الشامخة بإيمانها، واقع أيضًا على أفراد الجيش الغازي فهم مساقون إلى هذه الحرب لا يدرون أين يحاربون، ولا لماذا، ولا يدرون لماذا يقتلون هذا الشعب ولا لماذا يقتلهم هذا الشعب، فجميع أفراد الجيش الغازي ينطبق عليه بيت شوقي أمير الشعراء:

كالشاة تُساق إلى القتل بعصا جبار ذي بطش

ولو كان إيليا أبو ماضي حيًّا لأهدى بعض العقل إلى إيران التي تُصرُّ على الحرب مع دولة مسلمة تريد أن تكفَّ عن الحرب، وتُقدِّم في كل يوم عروضًا للصلح، ولكن إيران المسلمة التي يحكمها لأول مرة في تاريخها عالمٌ مسلم ترفض السلام والصلح وكلَّ ما يُعرض عليه، ومهما تكن العراق هي البادئة بالحرب أفلا يكفي الزعيم الإيراني العالم المسلم أن يكون العراق نفسها هي البادئة بالسلام، أين الإسلام إذن وليس بين أسماء الأديان اسم يحوي من حروف السلام ما يحويه اسمُ الإسلام، ولكن الإسلام عندهم اسمٌ على غير مسمًّى، وكلام بغير عمل وشقشقة ولا تنفيذ.

ولو كان إيليا حيًّا لأهدى بعض الحياء لذلك السادر المخبول في الجماهيرية وهو يتقافز فعل القردة في كل ميدان حرب، أو شقاق، أو حتى معركة أيدٍ وعِصي.

ولو كان إيليا أبو ماضي حيًّا لأهدى سوريا بعضَ الرحمة تخفف بها الوطء على شعبها، أو على شعب لبنان الذي قاسى من البلاء سنواتٍ طوالًا عجافًا حمراء داكنًا لونها

قطعَت أوصاله، وأوهنَت قواه فأصبح وهو يوشك أن يكون بلا كيان ليس يدري أيواجه الانقسامات والصراعات في داخله، أم يواجه العدو الصهيوني الذي يريد أن يحطم كلَّ العرب، أم يواجه الأخ الشقيق من سوريا وهو يحتل أرضه ويرفض له السلام، ويأبى أن يجلوَ عن لبنان التي دخلها بدعوى حمايتها؛ فأصبحت وهي أشد ما تكون حاجة إلى مَن يحميها من حاميها، ويرد عنها عدوان شقيقتها سوريا التي أمسَت شرًّا عليه من صهيون ودولة إسرائيل، وأذكر البيت العربي الشهير:

وظلمُ ذوي القربى أشدُّ مرارة على النفس من وَقْع الحُسام المهنَّد

رحمك الله إيليا أبو ماضي وقد فعل وأكرمك أن ترى هذا البلاء الذي نُعانيه فنصيح جميعًا مع المتنبي:

عيد بأية حال عدت يا عيد

لا يُصلح العلم فوضى!

قرأت في مجلة أكتوبر مقالة لأخي الكاتب الكبير أنيس منصور أجد من الأمانة أن أُشيد بها، وأن أضمَّ صوتي إلى صوته فيما ينادي به، وحسبنا نحن الكتَّاب أن نصرخ فما لنا في الحياة إلا هذا القلم نصرخ به، ونستصرخ المسئولين إلى ما نراه حقًّا فقد تصدَّى أنيس منصور إلى مشكلة التعليم، وما يواجهه أبناء مصر من كارثة بسببه.

فالدولة تقدِّم العلم مجانًا لكل أبنائها، وهذا في ذاته واجبٌ عليها ينبغي أن تتصدَّى له، ولكننا ما عرفنا واجبًا لا يلازمه حقٌّ إلا في مصر، وقديمًا قال علماء القانون والمجتمع إن الحق والواجب كوجهَي العملة؛ فإذا تصورنا انتزاع وجه من وجهَي العملة أمكننا تصور وجود واجب لا يلازمه حق.

فالدولة حين تُتيح للتلميذ أن يتعلم على نفقتها أصبح حتمًا على التلميذ أن ينجح؛ لأنه حين يرسب إنما ينتهب حق النجباء من التلاميذ الذين لا يرسبون؛ ولهذا يتعين على الدولة أن يكون التعليم في مدارسها مجانيًّا ما دام التلميذ ينجح، أما إذا رسب فعليه أن يدفع مصاريف تعليمه كاملة.

فإذا تكرَّر رسوبُه تحتَّم أن تُحولَه الدولة من التعليم العام إلى التعليم المهني.

كذلك ينبغي أن تنظر الدولة في شأن التلاميذ الضعاف في الشهادات العامة، وتحول الذين لا يحصلون على مجموع معين في الشهادة الإعدادية إلى التعليم المهني، فقد أصبحنا في حاجة شديدة إلى متخرجين في هذا النوع من التعليم. والدولة بهذا لا تُصادر مستقبل التلاميذ، وإنما هي تجعل التلميذ يسير في الطريق الأمثل له وتبعد به عن طريق أغلب الأمر أنه لن يحقق فيه نجاحًا، ومن الواجب أننا نسمع بعض الناس يقولون إن التفوق

في التعليم لا يدل على النجابة، وقد يخذل المستقبل تلميذًا كان في طليعة إخوانه في فصول الدراسة، وقد تتفتح الآفاق أمام تلاميذ لم يكونوا من المتقدمين في دراستهم.

ويقول أمير الشعراء شوقي:

وكم منجبٍ في تلقِّي الدرو سِ تلقى الحياة فلم يُنجب

ويقول آخرون إن العقاد، وهو العقاد، لم يحصل إلا على الشهادة الابتدائية، وأن تشرشل لم يكن نابغًا في الدراسة، وكذلك شأن كثيرين من العلماء وكبار الساسة.

ولكن هؤلاء جميعًا استثناء من القاعدة العامة. وإذا كان غير الناجبين ذوي طموح فعليهم أن يدفعوا مصاريف دراستهم، وعليهم أيضًا أن يُثقفوا أنفسهم كما ثقَّف العقادُ وتشرشل وجميع النابغين الذين لم يكونوا نجباء في دراستهم أنفسَهم.

ويقول أنيس في مقالته: إن تعيين الدولة لجميع الخريجين يجعل الشباب لينَ العريكة، خائرًا في مواجهة الحياة يرضى منها بالأدنى، ولا يتطلَّع إلى الأسمى، ويكتفي بالبخس من العيش، ولا يتطلع إلى الأرفع.

والحق أن تعيين جميع الخريجين أمرٌ يُرهق الدولة إرهاقًا لا تطيقه أية دولة في العالم، وليس الإرهاق متأتيًا من مرتبات الخريجين، وإنما هو يتمثل أسوأ ما يتمثل في تراكم الأعداد الضخمة على أعمال الدولة. فالعمل الذي ينبغي أن يقوم به موظف واحد نجد الدولة ترصد له مائة موظف، وتصبح المسئولية شائعة بينهم، وحين تشيع المسئولية تضيع، ولا تجد الدولة مَن تُسائله عنها.

ولست أدري أي بأس في أن تقدم الدولة مرتبًا لكل خريج ما دام بغير عمل حتى إذا وجد عملًا في أي مرفق انقطع عنه هذا المرتب، ويكون بذلك شأننا شأن أعظم الدول الديموقراطية وأغناها أيضًا، تلك التي تعطي مرتبات في حالة البطالة، ولكن أغنى الدول هذه لا تطيق مواردها تعيين كلِّ المتخرجين في مرافق الحكومة؛ لأنها تعلم علم اليقين أنها إذا فعلت ستُصاب الدولة بالشلل الكامل الذي نواجهه نحن.

وأخرى …

لماذا لا يدفع القادرون مصاريف أولادهم، وليكن ذلك باختيارهم فالله وحده هو المطلع على أحوال الناس المالية. فقد يبدو المرء ثريًّا متعففًا ورزقه مقدور عليه لا سعة فيه، أو قد يبدو آخر فقيرًا معدمًا، وهو مكتنز يجمع المال بشرِّ الوسائل، ويحميه عن

الإنفاق ببذل ماء الوجه ... وسفح الكرامة وإهدار الاحترام، ولعل من أجمل الأبيات التي سمعتها في هذا الشأن من الحياة قول شاعر قديم:

وقائلة ما بالُ لونك حائلًا فقلت لها خلِّ الأمورَ كما هيا
إذا قلت عن زهد تمدحت خلَّتي وإن قلت عن فقر شكوت إلهيا

فلا عجب إذن أن يكون الإنسان ذا كرامة ويُخفي فقرًا، أو ذا وقاحة ويُخفي غنًى، والله وحده العليم بدخائل الناس وحقائق يسرهم وعسرهم.

فليكن إذن التعليم المجاني اختياريًّا، ولتقدر المدارس مصاريف يدفعها من يشاء ويُعفى منها من يرغب في ذلك.

والناس معادن وليس كل الناس سفلة يضنون بالمال على دولتهم وينتهبون منها مصاريف تعليم أولادهم وهم عليها قادرون، وكم رأينا أناسًا يطحنهم الفقر، ويؤدون الأمانات إلى أهلها، وأعلم أيضًا أن هناك أقوامًا يغصون بالغنى ويشرقون بالمال، ويختلسون الأموال من كل مظنة لها ...

فالغنى والفقر إنما يتمثلان في نفس الإنسان، وليس في جيبه ولا في حسابات البنوك.

يُفتقَد البدر

إننا في هذه الأيام نحتفل بذكرى الشاعر الأول في الأدب العربي أحمد شوقي، وقد لقيَ شوقي من الهجوم في حياته وبعد وفاته ما يضيق به أولو الصبر والأناة. وكان رحمه الله فيما سمعت يضيق بالنقد، ولكن شيئًا لم يستطع أن يردَّه عن الإبداع الشعري الذي جلس به منفردًا على إمارة الشعر في عصره، وفيما سبقه من عصور، وأحسب أنه سيظل متسنمًا هذه القمة إلى أجيال كثيرة قادمة، ولا شك أنه سيتعرض في قابل الأيام لما تعرض في ماضيها من تطاول.

ولعل أصدق دليل على توقُّعي ما حدث في التليفزيون المصري منذ قريب حين تصدَّر التليفزيون ناقدٌ مصري الجنسية والمولد ولا أقول الاسم، أجنبي الثقافة والانتماء، ولا أقول الهوى، وحذَّر أن نعود إلى عصر شوقي وعزيز أباظة في المسرحية الشعرية، وكأني به وجد مَن يستطيع البلوغ إلى هذه القمة، ولم يبقَ إلا أن يحذرَه من بلوغها.

ولكن ما شأن الأجانب الغربيِّين بالشعر العربي، إن هذا الناقد يحرص على هدم الأدب العربي الخالص، منذ أول حياته يتسلَّق ما يجد ليبلغ الشهرة، ولكنه أخطأ السُّلَّم فتسلَّق سُلَّمًا إنجليزيًّا تارة وفرنسيًّا تارة، وشيوعيًّا دائمًا، فلا هو أصبح أديبًا عربيًّا في المكانة الجديرة بسنِّه ولا هو أصبح أديبًا فرنسيًّا، ولا هو أصبح أديبًا إنجليزيًّا، وإن ظل على الدوام شيوعيًّا وحربًا على اللغة العربية، وهو بحربه لها يحارب معنى أكبر لن أُصرِّح به ما دام هو مُصرًّا أن يتكتمه تكتمًا فاشلًا، فما من أحد يعرفه أو يقرأ له إلا وهو يعرف ما يضمر وما يحاول أن يستره، والله من فوق عباده غالبٌ على أمره.

وقالوا عن شوقي شاعر الأمير وقال هو عن نفسه:

شاعر الأمير وما بالقليل ذا اللقب

ولكن شاعر الأمير هذا لم يسكت يومًا على باطل، ولا بارك يومًا رأيًا لا يدين به، بل هو يصرخ في قصيدته الرائعة «الهلال»:

سنون تمرُّ ودهرٌ يُعيد لعَمرُكَ ما في الليالي جديد
أضاءَ لآدم هذا الهلال فكيف تقول الهلال الوليد
على صفحتَيه حديثُ القُرى وأيامُ عادٍ ودنيا ثمود
وطيبةُ حافلةٌ بالملوك وطيبةُ مقفرةٌ بالصعيد
نعدُّ عليه الزمانَ القريب ويُحصي علينا الزمانَ البعيد
يقولون يا عامُ قد عُدتَ لي فيا ليت شِعْري بماذا تعود
لقد كنتَ لي أمس ما لم أُرِد فهل أنت لي اليوم ما لا أريد
ظمئتُ ومثلي بِرِيٍّ أحَقُّ كأني حسينٌ ودهري يزيد
ومَن صاحب الدهر صحبي له شكًا في الثلاثين شكوى لبيد
وإني نواس هذا الزمان فمن للزمان بإذن الرشيد

فهو إذن يهاجم الأمير ويرميه بأنه لا يقدِّر شاعرَه حقَّ قدره، وهذا الشاعر الذي أطلقوا عليه شاعر الأمير، ثم نصَّبه شعراء العروبة جميعًا أمير الشعراء، نال هذين اللقبَين تمجيدًا وفخرًا، وكلَا اللقبَين كان يتمنَّى شعراء جيله أن يفوزوا بواحد منهما، ولكن سعيهم أكدى، وصدق عليهم قول شوقي:

قسمًا لو قدَروا ما احتشموا لا يعفُّ الناس إلا عاجزين

ذكرتُ شوقي اليوم وإسرائيل تُعربد في العالم العربي كعاهرة ساقطة النقاب معدومة الحياء، وذكرتُ شوقي وأنا أرى أمريكا أكبر دولة في العالم تُبارك فجورَ إسرائيل وتحطيمها لكل سلام مرتقب مع العرب. وتولَّت القلبَ حسرةٌ لاعجةٌ بل حسرات. إسرائيل تهزأ بكل الأعراف الدولية والخلقية وتصنع ما لا تصنعه دولة بل وما لا يجوز أن تصنعه الجماعات الفلسطينية، ولكن إذا غفرنا للمظلوم المشرَّد أن يضرب ضربات رعناء غير

واعية فكيف نسيغ أن تصنع دولة لها وزارة وكنيست ورأيٌ عام أن تفعل فعلَ الجماعات التي شردتها هي.

ونرى أمريكا التي ينبغي أن تكون في مكان الدولة الكبرى التي تردع مخلوقتها إسرائيل إذا هي سكرت وتخدرت وعربدت، تُبارك ذلك الهوس الدموي الآثم المجرم الذي تقوم به إسرائيل، وأرى هذا وأنظر إلى العرب.

فأرى سوريا تصنع في شقيقتها لبنان ما تصنعه إسرائيل في أعدائها من الفدائيِّين، وأرى سوريا أيضًا تنقضُّ انقضاضَ الوحوش المسعورة على الفدائيِّين أيضًا، وكأنهم ما كفاهم أن استلبَت منهم إسرائيل أرضَهم وأمنَهم ومأواهم، وكأنهم ما كفاهم تلك الأعمال الإجرامية التي تصبُّها عليهم إسرائيل في غير خجل أو تفكير في الرأي العام العالمي. كأن سوريا ما كفاها هذا جميعًا فهي تطحن الفدائيين طحنًا أخرقَ مأفونًا حتى لا يسعَنا إلا أن نقطع بأنها على اتفاقٍ تامٍّ مع إسرائيل، وما لنا ألَّا نظنَّ هذا والعالم كله يتكلم عن بيع سوريا أرضها في الجولان لدولة إسرائيل التي ضمَّتها إلى أقاليمها.

أرى هذا وأرى العرب وما زال كلٌّ منهم في شأنٍ يُغنيه. الدول صاحبة الثراء والقدرة المالية الباذخة صامتة ساكنة مكتفية أنها قطعَت علاقتها بمصر، وكأن مصر هي التي تُعربد في تونس ولبنان، ولا تقطع الدول العربية علاقتَها بسوريا التي حاربَت الفدائيِّين بأشد مما تحاربهم إسرائيل، ولكنها دول تخشى التخريب السوري وتعلم أن مصر محكومة اليوم حكمًا ديمقراطيًّا، وأنها سلام حيث حلَّت، أمنٌ حيث ذهبَت، وأنها من قبل ومن بعد تنظر إلى كل الدول العربية الأخرى نظرتَها إلى الإخوة الصغار، وشأن الكبير أن يعفوَ ويتسامح ويعفَّ ويتعالى في كبرياء. ويصدق علينا قولُ الشاعر العربي القديم:

وإن الذي بيني وبين بني أبي	وبين بني عمي لمختلف جدًّا
إذا أكلوا لحمي وفرْتُ لحومهم	وإن طلبوا هدمي بنيتُ لهم مجدًا
يُعيِّرني بالدَّين قومي وإنما	ديونيَ في أشياء تُكسبهم حمدًا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم	فليس كبير القوم مَن يحمل الحقد

أذكر هذا جميعه في ذكرى مولد شوقي وفي ذكرى وفاته؛ فاليومان متوافقان، وأتساءَل هل كان شِعر شوقي يستطيع اليوم أن يُوقظَ في العرب عروبتَهم ويردَّهم إلى

ضمائرهم ويُعيدَهم إلى الطريق؟ فيقول لهم ما قاله في رثاء الخلافة؟ لأحسب أنه كان سيسمي القصيدة في رثاء العروبة، فهي اليوم هي القتيل:

عادَت أغاني العرس رجعَ نُواح ... ونُعيتِ بين معالم الأفراح
كُفِّنتِ في ليل الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تبلُّجِ الإصباح
شُيِّعتِ من هلعٍ بعبرةِ ضاحكٍ ... في كل ناحيةٍ وسكرةِ صاح
ضجَّت عليكِ مآذِنٌ ومنابرٌ ... وبكَت عليك ممالكٌ ونواحِ
الهندُ والهةٌ ومصرُ حزينةٌ ... تبكي عليكِ بمدمعٍ سحَّاح
والشام تسألُ والعِراقُ وفارسٌ ... أمحَا من الأرض العروبةَ ماحِ

وطبعًا أبدلت كلمة الخلافة بكلمة العروبة وأمضى في قصيدة شوقي:

يا لَلرجال لحرَّةٍ مَوْءودة ... قُتلت بغير جريرةٍ وجُناح
هتكوا بأيديهم ملاءةَ فخرهم ... موشيَّةً بمواهبِ الفتَّاح
نزعوا عن الأعناق خيرَ قلادة ... ونضَوا عن الأعطاف خيرَ وشاح
وعلاقةٌ فُصمت عُرَى أسبابها ... كانت أبرَّ علائقِ الأرواح

كان شوقي خليقًا أن يقول مثل هذا وأكثر حين يرى حال العرب اليوم ولكن ... كم تخادع نفسها النفس، أو سيلبُّون دعوة شوقي، هيهات إن كانوا عرفوا عن دعوة الله لهم بالوحدة، أيلبُّون دعوة إنسان مهما يكن أمير الشعراء.

اللهم إنك قد فرضتَ علينا الحج ليكون للمسلمين وحدةً ورباطًا واجتماعًا، فاللهم فشأنك اليوم مع عبادك الذين صاروا فِرَقًا وشِيَعًا وأحزابًا وليس لهم من دينك عاصم، ولا من نفوسهم عصام، وحسبنا أنت فأنت أنت وحدك نعم الوكيل.

السيف والذهب

قد يطيب للحياة بين الحين والآخر أن تؤلف قصة فنية تلتزم فيها بجميع قواعد القصة التي وضعها النقاد، وهذه القصص الفنية نادرة في مجموعات الحياة القصصية، فأغلب قصصها بعيدة عن المعقولية التي يلتزم بها القصاصون، فهي لا يعنيها في شيء إقناع المطلع على ما تكتب، ولا يعنيها أيضًا رضاؤه أو عدم رضائه. ولعل شوقي هو أعظم مَن وصف قصص الحياة الضاربة في قصيدته الخالدة مصاير الأيام. وأن الحياة حين تؤلف قصصها تبدو لبني الأرض كأنها ظالمة؛ لأن الإنسان لا يعرف إلا عدالة ضيقة الحدود ضئيلة المعالم. أما عدالة السماء فتشمل الكونَ كلَّه وهو سبحانه وحده يعلم وليس غيره يعلم ما هو خير لعبده، فهو يطبق عدالته تقدَّست أسماؤه بالصورة التي تمكِّن العدالة أن تتاح لجميع عباده وهو حين يطبقها يشفعها بكرمه ولطفه ورحمته التي كتبها على نفسه.

فشوقي حين كتب أبياته هذه الخالدة التي سأرويها لك؛ سجَّل ما تجري عليه الحياة في ظاهر أمرها؛ لأن الله وحده هو الذي يملك ما وراء أحداث الأرض من عدالة تشمل الجميع، وقد أُعجبت بإحصاء قامَت به سيدة أمريكية أثبتَت به أن الناس جميعًا يتمتعون بأنصبة متساوية من السعادة تُقابلها أنصبة متساوية من الشقاء؛ فكل إنسان حَظيَ بقدر من السعادة يعدل ما أصاب الآخرين، وناله قدرٌ من الشقاء نال مثيله الآخرون. والله وحده يعلم مداخل السعادة والشقاء في نفوس أبناء البشرية؛ فقد يقع الحدثُ الهينُ، ولكن الشقاء به في نفس مَن وقع عليه يكون فادحًا، وقد ينال إنسانٌ ما خيرًا ضئيل الشأن ولكن سعادته به تفوق كلَّ سعادات الدنيا.

يقول شوقي:

قطيع يُزجِّيه راعٍ من الدهـ ـرِ ليس بلينٍ ولا صُلَّبِ
أهابَت هِراوتُه بالرِّفاق ونادَت على الحُيَّدِ الهُرَّبِ
وصرَّف قطعانَه فاستبدَّ ولم يخشَ شيئًا ولم يَرهبِ
أراد لمَن شاء رعْيَ الجديبِ وأنزل مَن شاء بالمخصبِ
وروَّى على رِيِّها الناهلات وردَّ الظِّماءَ فلم تشربِ
وألقى رءوسًا إلى الضاربين وضنَّ بأخرى فلم تُضرَبِ
وليس يُبالي رضا المستريح ولا ضجَرَ الناقمِ المتعَبِ
وليس بمبقٍ على الحاضرين وليس بباكٍ على الغُيَّبِ
فيا وَيْحهم هل أحسُّوا الحياة لقد لعبوا وَهْي لم تلعبِ

وهكذا الحياة إذن حين تؤلف. ولكن القصة التي سأرويها لك اليوم كاملة الخطوط لن ترى فيها عوجًا ولا أمتا، وإن كنت سترى فيها أموال مصر كيف امتهنت، وأقدار الناس كيف ضاعت. وسترى فيها الرعب وكيف فشا في حياتنا في عهد الطغيان الأسود والجبروت العاتي.

كان أستاذًا في الجامعة وقع عليه الاختيار ليكون وزيرًا فكان. وكان قد استطاع على مدى أيام حياته أن يبنيَ لنفسه ولبنيه عمارة يسكن بها هو وأولاده ولم يترك بالعمارة شقة خالية لابنه حين يتزوج؛ مطمئنًا إلى القانون الذي كان ساريًا في ذلك الحين أن من حق صاحب العمارة أن يُخليَ شقة في ملكه أو أكثر إذا كان الإخلاء من أجل أبنائه أو بناته عند الزواج.

ولكن هذا القانون أُلغيَ فجأة ودون مناقشة وبأمرٍ قاطعٍ باتر لا مراجعة فيه ولا تدبُّر، وبلغ ابنُه سنَّ الزواج ووجد العروس ولم يبقَ إلا أن يجد العروسان سقفًا يضمُّهما، ووقع الوزير في حيرة، ووجد بين سكان عمارته شخصًا فردًا يستأجر شقة، ولكنه لا يقيم بها، وإنما له غيرها، فظن في سذاجة أنه يستطيع أن يفاوض صاحب هذه الشقة أن يتركها لابنه، ولكن كيف؟ ومتى كانت الإنسانية عاملًا ذا قيمة في دنيا الجشع.

رفض الرجل وراح يُرسل البرقيات إلى كل ذي سلطان، أن الوزير يريد أن يُخرجَه من مسكنه وأنه يستغل منصبه، وملأ الرعب قلب الوزير المسكين وانطوى قطًّا هالعًا. وذهب إلى صاحب الشقة يُعلنه أنه تنازل عن رجائه وأنه لا يريد الشقة، وأنه ليس من

الضروري أن يتزوج ابنه على الإطلاق، فلا بأس أن يظلَّ الابن بلا زواج إذا كان في زواجه سجن الأب وسَحْقه؛ فقد كان الوزراء من أساتذة الجامعة أكثرَ الناس قُربًا إلى الهوان والتدمير إذا ما غضب عليهم السلطان أو أحد الأمراء المقربين للذات العلية.

ولكن هل سَلِم الوزير؟ هيهات؛ كان كلما لقيَ وزيرًا من أمراء الزمان طالعه في جهامة — ما حكاية الشقة! ويقول الوزير المغلوب على أمره — لا، لا شيء؛ لقد صرفت النظر عنها.

كان الوزير أستاذ الجامعة السابق يدري كل الدراية أن العلم الذي يحمله يجعله عرضةً للتمزيق والتحقير؛ ففي عصر الجهلاء يصبح العلم تهمة، وتصبح الثقافة جريمة لا تُغتفر. فأبشع أنواع الجهل العلم الناقص، ورحم الله شوقي أيضًا حين قال:

كلُّ تعليم نراه ناقصًا سُلَّمٌ رثٌّ إذا استُعمل خانا

وفي يوم اجتمع مجلس الوزارة برئاسة القطب الأعظم وجرى الحديث من فرد واحد يُلقي الأوامر لتصبح نفاذًا! ولاحظ الدكتور الوزير أن الذات العلية مشيحة عنه، فأوجس كلَّ شرور الدنيا وانتهى الاجتماع ونظر السلطان إلى الوزير المذعور.

– لا تنصرف قبل أن أراك.

– أمرُك.

ستعرف متى ألقاك حين أُرسل إليك.

– أمرُك.

ودلفت الذات العلية إلى حجرتها الخاصة، وظل الوزير مرتجفًا في انتظار طال ثم جاء له السادن حامل الأختام وقال له: ما هذا يا دكتور الذي صنعتَه؟!

– ابني لعنة الله عليه أراد أن يتزوج، وهل تأتي المصائب إلا من الأبناء، هل كان لا بد له أن يتزوج، وهل ستخرب الدنيا إذا لم يتزوج؟ سخف وحماقة انصبت على دماغي، وعلى كل حال أنا اعتذرت لصاحب الشقة وسحبت رجائي الذي توجهت به إليه ولا داعي أبدًا أن يتزوج ابني.

– اسمع أنت ستدخل الآن إلى السلطان، قبل أن تدخل حجرته ستجد كوب ماء وأقراص فليوم للتهدئة، خُذ قرصًا، أو لعل من الأحسن أن تأخذ قرصين، وادخل ولا تناقش واسمع فقط.

– أمرُك.

وتوجَّه الوزير مرتعش الأطراف وفتح بابًا فوجد الأقراص والماء فتناول ثلاثة أقراص، وانتظر لحظات يقرأ الآيات القرآنية لعلها تُثبت بعض قلبه الذي أصبح وكأنه بين مخالب طائر يهوم في السماء صعدًا، ثم قرأ الفاتحة وبسملَ وبيدٍ توشك على الشلل فتح الباب وطالعه الهول الآخذ والرعب المبين.

– ما هذا يا دكتور؟

وصمت الدكتور وقد أصبح فقدانُ الوزارة أملًا له في تلك اللحظة، فهو إنما كان يخشى ما يلي هذا الفقدان من سجن وعذاب وتمزيق أعراض وأجساد، أو كان يخشى التشريد في أقطار مصر بلا مأوى ولا ملجأ ولا أمان.

صمت وظل البركان ثائرًا حتى إذا استوقفت الثورة وبلغَت قمتها قال السلطان: مُرَّ على السادن حامل الأختام قبل أن تغادر إلى بيتك. واستطاع الوزير أن يستجمع لسانه ليقول: أمرُك …

وخرج وذهب إلى السادن حامل الأختام منتظرًا أن يصدر إليه الأمر بأن يلزم البيت ويترك الوزارة، ولكنَّ أمرًا عجيبًا حدث! قال السادن حامل الأختام: مثل هذه الأمور لا تكون هكذا، كان عليك أن تُخبرنا ونحن نتصرف.

– لم أكن أعرف.

– على كل حال خُذ هذَين. مفتاحان لشقتَين مفتوحتَين على بعضهما البعض من شقق الحراسات في أفخم عمارة في القاهرة، وأخذ الوزير المفتاحَين وهو لا يصدِّق نفسه.

ولم يجرؤ الوزير وهو يركب سيارة الوزارة في طريقه إلى البيت أن يفكر ولو لحظة واحدة أكانت الحراسات قد وضعت على الناس لتصبح أموالهم ملكًا خاصًّا للذات العلية، والأمراء، والسدنة، وحملة الأختام، والقماقم.

لقد كان التفكير جناية عقوبتها في تلك الأيام لها من الشراسة والفجور ما يجعل الإعدام معها رحمة وشفقة ولطفًا.

ومع ذلك ما زالت هناك ألسنة تلهج بمديح تلك السنين السفاكة التي أنقذنا منها الله بواسع فضله، وغامر نعمته جل جلاله وسبحانه وتعالى عما يشرك به الطغاة المشركين له الحمد وله الشكر فإنه لا موئل للإنسان إلا كريم وجهه.

ماذا فعلتم بأبيكم؟

أُشاهد في هذه الأيام روايةَ زينب التي ألَّفها في أوائل هذا القرن أبو الرواية المصرية الدكتور محمد حسين هيكل باشا، وهكذا تعتبر هذه الرواية تراثًا أدبيًّا بدأت به الرواية المصرية مسيرتها حتى بلغت اليوم ما بلغته.

وقد قُدِّمت هذه الرواية في السينما المصرية وهي صامتة، ثم قُدِّمت في أول الخمسينيات ناطقة، ولا أعرف شخصًا ذا اهتمام بالأدب عامة وبالقصة خاصة لم يقرأ الرواية ويستمتع بها.

وحين ألَّف الدكتور هيكل باشا هذه الرواية كان المذهب السائد في الأدب الغربي هو المذهب الرومانسي؛ فالرواية رومانسية ناعمة تُصوِّر الريف المصري الطيب وترسم الحب الصادق الذي يصطدم مع الظروف والتقاليد الريفية التي لم تكن حتى ذلك الحين تعترف بالحب.

وجمال هذه الرواية أن تبقى كما هي تُمثِّل بدايةَ الرواية المصرية، وتمثِّل الريفَ المصري الناعم الهنيءَ السلس المجرى الصافي النمير الطيب القلب، وقد كان من المستحيل في تلك الأيام أن يحاول أيُّ فرد أو أيُّ حبٍّ مصارعةَ التقاليد الريفية أو الوقوف في تيارها الذي ينزل في نفوس الفلاحين منزلةَ العقيدة أو قريبًا من منزلها قُرْبًا يجعلها تختلط بالإيمان وبالدين.

فرواية زينب إذن لم تكن صراعًا طبقيًّا، ولا كانت هناك طبقات في ذلك الحين، بل كان الجميع في بوتقة واحدة يأخذ القويُّ منهم بيدِ الضعيف والصحيح منهم بيد المريض، وكانت أجواءُ القرية كلها حبًّا خالصًا وأخوة وتكافلًا، ولم يكن قد ظهر في أفقها مَن يُثير قومًا على قوم ولا طبقة على طبقة، ما زال الريف حتى يومنا هذا، وبعد كل المحاولات

العنيفة التي بُذلت للتفرقة بين أبنائه ما زال حتى اليوم لا يعرف الطبقات ولا يطبق الشيوعية ولا يقبل الكراهية حياةً له وديدنًا أو شعورًا.

وربما عرف الصعيد الثأر وهذا جانبٌ بعيدٌ كلَّ البعد عن سائر ما يعرفه الريف من أخوة وصداقة وحب؛ فالمكان يجمعهم، وما يصيب الفرد منهم يصيب الجميع.

وفي هذه الأجواء الصافية الشقيقة كتب هيكل باشا زينب. فبالله عليكم يا مَن كتبتم زينب الجديدة ماذا فعلتم بأبيكم؟

ما هذا الحقد وتلك الكراهية وذلك السواد القائم وهذه السخيمة المقيتة التي طمستم بها معالم الرواية، ومن أين أتيتم بهذه الشخصيات الحقيرة النفس الوضيعة الأهداف الرخيصة التصرف؟

هل تتصورون أنكم ما دمتم قد أنعمتم برتبة البشوية على شخصية روائية لا بد أن تنعموا عليها مع الرتبة بالسفالة والانحطاط والجشع والتآمر والسعار وجمود الحس وانعدام المشاعر هيهات ... قد جهلتم وإني سأذكر هنا أسماء باشاوات وأرجو أن أعرف رأيكم فيهم. ما رأيكم في أحمد عرابي باشا، وشريف باشا، ومحمود باشا سليمان الذي رفض الملك قبل تولية السلطان حسين الذي جمع الأحزاب في داره وأزال ما بينهم من خلافات، ود. محمد حسين هيكل باشا، ود. مشرفة باشا، ود. شوشة باشا، وعشماوي باشا، ود. علي إبراهيم باشا عميد الجراحة، ود. المنياوي باشا الجراح، ود. إبراهيم شوقي عميد طب الأطفال، ود. عبد الوهاب مورو باشا الجراح الشهير، ولطفي السيد باشا، ود. عبد الحميد بدوي باشا، وعبد الخالق حسونة باشا أمين عام الجامعة العربية، وسابا حبشي باشا، وأحمد مصطفى باشا المستشار، ومحمد صفوت باشا المستشار، هذه الأسماء أوردتُها من الذاكرة، وقصدتُ أن أتجنب ذكْرَ جميع الباشوات الذين لم يكن لهم شهرة إلا في العمل السياسي؛ ففي ميدان السياسة يختلف الرأي حول رجالاتها، وأنا إنما أريد أن أقدِّم أسماء لم يختلف حولها رأيان، ولو أنك أنعمت النظر في شأن هؤلاء لتبيَّنتَ حقيقة يريد المؤلفون أن يُخفوها عن عمد مزيف مزور سيِّئ القصد، فهم حين يكتبون عن الباشوات لا بد أن يجعلوهم جميعًا أثرياء ثراء فاحشًا، ويستخدمون ثراءهم في غرض واحد هو الإساءة إلى خلق الله لوجه الشيطان وحده. ما أجهلكم بعظمائكم!

أكان عرابي ثريًّا؟ أم مصطفى كامل، أم هيكل، أم طه حسين، أم منصور فهمي، أم مشرفة، أم كل هؤلاء، هذا إذا كان الثراء جريمة، وإنما لا غفران له، هذا هذرٌ قابلناه في فترة سوداء من تاريخ أدبنا، ولكن أعتقد أن هذه النغمة أصبحت نكراء كاذبة تُشوه وجهَ مصر وعظماءَها بغير كسب أدبي أو وطني أو سياسي.

وبعد فماذا صنعتم بأبيكم ومَن أذن لكم أن تشوهوا الرواية الأم في الأدب العربي هذا التشويه المريع؟ لقد مزقتم رواية زينب شرَّ تمزيق، ولقد ضحكنا منكم ضحكات مريرة وأنتم تدخلون شخصية لطفي السيد والمؤلف بريء من ذلك كل البراءة؛ فلطفي السيد باشا كان بمثابة خاله وأستاذه وما يتصور الدكتور هيكل باشا أن يجعل منه شخصية روائية، ولقد ضحكنا ضحكنا على شرِّ البلية، وأنتم تحاولون أن تجعلوا من ابن الباشا شخصية موازية للدكتور هيكل، مَن قال لكم إن هيكل باشا كان شيوعيًّا مثل هذا الفتى الذي رسمتوه، والذي مثَّله بكل أسف ممثلٌ أحبَّه وأُعجبَ به، وأشعر أنه قادر على تقريب الناس إليه، ومَن هذه الفتاة في الخمار الأسود الحزينة المكشرة عن أنيابها المتحفزة كنمرة شرسة، كذئبة، أهذه زينب شخصية هيكل باشا، أم هي زينب بتروفيسكي، أم ساشا المصرية؟ ومَن هؤلاء الشخوص جميعًا؟ مَن هذا الفتى الحاقد المليء بالشر؛ أهذا إبراهيم الذي رسمه هيكل نسمة من هوى وخلجة من فؤاد محب وأنشودة من الصفاء؟ ومَن هؤلاء ومَن أولئك الأمهات، ومَن هذا العمدة، وما هذا الهراء؟

في هذه الرواية التي تدَّعون أنها زينب كل الشخصيات المفتعلة متهرئة منهارة غير متكاملة.

ولكَم كتبتُ أن كاتب السيناريو له رؤيته الخاصة، وكم غيَّر كتَّاب سيناريو من روايات لي فما غضبت؛ لأنهم أبقَوا الفكر الأساسي الذي كُتبت له الرواية.

أما هذا الذي صنعتم بزينب فعجيبة من عجائب الدهر. هو تمزيق استحياء، وهو اعتداء لا تطور وقتل لا إحياء، ولكن زينب هيكل ستخلد إلى الأبد في كتاب.

وإنني أحذر المشاهدين أن يظنوا أن الذي شاهدوه له صلة بزينب هيكل أول رواية في تاريخ الأدب العربي، وإذا كانوا يريدون أن يعرفوا زينب فيقرءوها في كتاب أو يشاهدوا أحد الفيلمَين السينمائيَّين اللذَين ظهرَا عنها.

أما هذا الذي يصنعه التليفزيون فليس زينب من قريب أو بعيد.

يا كاتب السيناريو إن كنت أنت الكاتب الذي أعرفه فقد أذهلتَني فأنا أعرفك كاتبًا قديرًا وأعرفك مخرجًا مجيدًا، فما هذا الذي تصنع؟

سيدي الأستاذ رواية زينب ظهرت في مصر ولم تظهر في الاتحاد السوفيتي، ورواية زينب رومانسية وليست بأي حال من الأحوال ولن تكون رواية شيوعية كما صنعتَها، والعجب أنني أعرف عنك أنك أبعد ما تكون عن الشيوعية، والمخرج زميل العمر الذي أخرج المسلسل أبعد ما يكون عن الشيوعية فما هذا الذي تصنعان؟!

أحسب أنكما معذوران؛ لقد تمكَّن الشيوعيون أن يجعلوا كاتبًا حرًّا ومخرجًا عميق الديمقراطية يقلبان زينب التي ألَّفها الدكتور محمد حسين هيكل باشا رواية شيوعية، والأمر من قبل ومن بعد للواحد القهار.

خطاب وتعليق

جاءني هذا الخطاب من الأستاذ أحمد محمد حسين هيكل المحامي ونجل أستاذنا المغفور له الدكتور هيكل وإني أنشر الخطاب وأعلق عليه.

«أخي ثروت، لعلك بمقالك اليوم عن زينب المزعومة، عبَّرت عما كان يجيش بصدري وصدر كل الذين شاهدوا هذا التزييف الذي تعرَّضَتْ له أول قصة في الأدب المصري الحديث، وأقول التزييف؛ لأنه ما من شخصية من شخصياتها تمتُّ بصلة حقيقية لأصلها في الرواية الأم كما سميتها، وما من معنًى من المعاني التي عبرَت عنها تلك الشخصيات المزيفة تمتُّ إلى المعاني التي عبرت عنها شخصيات الرواية الحقيقية بصلة أو سبب، وإذا كان مثل ذلك يحدث في شأن زينب وهي القصة التي قرأها الملايين في أصلها المكتوب وشاهدَتها ملايين أخرى على شاشة السينما، واحتلَّت مما كتب النقاد والدارسون آلاف الصفحات، فما بالك بما يمكن أن يحدث لروايات لم تُتَح لها مثل هذه المكانة، يا حسرة على ما يصنعه التليفزيون بأدبنا كله!»

وما أظن صاحب زينب الحقيقية ليرضى عن هذا الذي يفعله التليفزيون بالأعمال الأدبية وما أظن أننا — وقد تحملنا أمانة حفظ تراثه، وسنحمل هذه الأمانة إلى النهاية — لنقبل أن نبقى مكتوفي الأيدي تجاه هذا العبث. ولو أن التليفزيون يريد — كدأبه — إرضاءَ ميول جمهور المشاهدين فلعله خانه التوفيق هذه المرة كما خانه من قبل في أعمال أخرى، رغم النقد الكثير الذي وُجِّه إليه حينئذ. وما إخراج التليفزيون لحياة العقاد ببعيد، ولكن أحدًا لا يتعلم الدرس ولا يعيه. على أن الذي لا يمكن القبول به تحت أيِّ ظرف من الظروف هو أن يتمَّ ذلك على حساب خير ما في فكرنا وأدبنا الحديث من أعمال كبرى نعتزُّ بها ويفخر بها الوطن.

ومسئوليتنا الأدبية والوطنية تقتضينا أن نحُولَ دون أن يشوِّه العابثون تراثَنا. ومن هنا فإني أُناشدك عرْضَ الأمر بصفة عاجلة على مجلس إدارة اتحاد الكتَّاب ليرى في الأمر رأيه، وليصلَ من ذلك إلى ما يكفل حماية أعمالنا الأدبية الرفيعة من عبثِ العابثين. هذا هو الجانب العام في الموضوع، أما عن مسئوليتي الخاصة فأودُّ أن أُبلغَك أن هذا الذي حدث لم نأذن به ولا جرَى اتفاقٌ بشأنه مع التليفزيون، وسيكون له حديث آخر بيننا وبينه بالطريق الذي رسمه القانون، ودُمتَ لأخيك.

أنا أعرف يا أخي أحمد مقدارَ الألم الذي تعرضتَ له وأنت تشاهد رواية أبيك الخالدة تتحول إلى رواية أخرى لا صلة لها بها، وأعرف أيضًا الأسى الذي تعرض له إخوتك وإخوتي وهم يشاهدون رائعة أبيهم يُمَثَّل بها بدلًا من أن تمثل، ونحمد الله أنه أكرم المؤلف العظيم ولم يشهده، ولكن قد يهون الأمر عليك وعلى إخوتك إذا قُدِّر لك أن تشاهد سائر البرامج في التليفزيون فسترى يا أخي المد الشيوعي وقد طغى طغيانًا مريعًا على هذه البرامج، وسترى أنك رددتَ بجهد الشيوعيين إلى تليفزيون الستينيات. وأنت تعلم يا أخي كما أعلم أنا أن هؤلاء الشيوعيين مهما يفعلوا فلن يصلوا إلى قلوب الشعب أو مشاعره، فإنهم سيجدون دون سمومهم لا إله إلا الله محمد رسول الله تردُّهم فاشلين خائبين، وسيجدون الإيمان بالله عند إخواننا المسيحيين يقصف أقلامهم ويحطم إلحادهم مدحورًا مهانًا …

ولكن الخطر مع ذلك داهمٌ وبيل؛ فها أنت ذا ترى الموجة التي جرفت الرقباء — وهم معذورون — لا يسمحون إلا بالروايات التي تهاجم كلَّ ذي لقب أو ذي مكانة أو ذي كرامة، وماذا بيدهم أن يفعلوا وهم يرون الشيوعيين يملئون الدنيا بصُراخهم، أن الشرف لا يجتمع مع الكرامة وأن الخلق لا يكون لمن يحترم نفسه.

وماذا بيدهم أن يفعلوا وهم يرون الشيوعيين يرفضون أن يكون الإنسان إنسانًا إلا إذا كان معدمًا، أما العاملون الكادحون على مكاتبهم أو بجهدهم أو بفكرهم أو بإشرافهم فسُحقًا لهم وبُعدًا.

فالطبيب والمهندس والمحامي والمحاسب والكاتب والمعلم كل هؤلاء طبقة برجوازية ذات تطلعات.

والرقباء ليسوا شيوعيين، ولكنهم يرون وجه الإعلام قد استولى عليه الشيوعيون، فهم يصرخون في جميع الصحف، وهم يطلون عليك في أغلب البرامج.

والأمر يا أخي أحمد ليس مجردَ إعلام أو مقالات أو برامج، إنما الأمر أخطر من ذلك وأجلُّ شأنًا.

إن الحرية الاقتصادية تتعرَّف وجه الدولة من إعلامها، فإذا طغى هذا اللون الأحمر على صوت الدولة فهيهات هيهات أن يطمئنَّ أصحابُ رءوس الأموال المصريون أن يدخلوا بأموالهم إلى ميدان التصنيع، وإذا كان المصريون يخافون فالخوف أعمق وأشد في نفوس رءوس الأموال الأجنبية سواء أكانت لدول أم لأفراد.

ونحن، كما تعلم، يا أخي دولة أملُها الوحيد في الازدهار الاقتصادي، والازدهار الاقتصادي يعتمد على الاستقرار وحرية رأس المال واطمئنانه، والشيوعيون، كما تعلم، أملُهم في الوصول إلى الحكم معتمدين على تخريب الاقتصاد المصري وزلزلة الثقة فيه عند العالم أجمع دولًا وأفرادًا.

وهكذا ترى يا أخي أحمد أن زينب جرى عليها ما يجري لكل الأعمال الفنية الرفيعة في فترتنا هذه …

ولكن هوِّن عليك يا أخي؛ فوالدنا الدكتور هيكل خالد مهما تعبث بروايته موجاتٌ عارضة لا بد لها أن تزول، فمحمد حسين هيكل هرمٌ ضخم هيهات أن يؤثر فيه شيء، وقد انتهت كارثة هذه الرواية التليفزيونية وما خلفت في نفوس عارفي أبيك إلا بعض الحسرة ما تلبث أن تزول، والكتاب من بعد ومن قبل هو الخالد. أما هذا الزبد فأنت تعلم أنه جفاء زائل لا قيمة له، ودائمًا يا أخي أحمد لن يصحَّ إلا الصحيح.

لكل عصر جبرتي

أقرأ في هذه الأيام الجزء الثاني من كتاب تاريخ الحركة القومية لإمام مؤرخي العصر الحديث الأستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعي، وليست هذه المرة الأولى التي أقرأ فيها الرافعي، ولا هي المرة الثانية، ولكن الذاكرة لا تعي كلَّ شيء، وكثيرًا ما تكون القراءة الثالثة أو الرابعة وكأنها القراءة الأولى، وهذا الجزء الذي أقرأه مفردًا تقريبًا للحملة الفرنسية على مصر، وقد جاء فيه أن نابليون أصدر في ٢١ ديسمبر سنة ١٧٩٨ منشورًا يقول فيه إنه عطل الديوان منذ شهرين عقابًا لأهل القاهرة على الثورة التي قاموا بها، ثم يذكر الأستاذ الرافعي نظام هذا الديوان الجديد، ويقول إنه جاء أوسع نطاقًا من نظامه القديم، فهو مؤلَّف من هيئتَين «الديوان العمومي»، ويسميه نابليون «الديوان الكبير»، والديوان الخصوص.

أما العمومي فيكون من ستين عضوًا يمثلون أعيان مصر ومختلف الطبقات فيها، وقد ذكرهم الرافعي جميعًا. أما الديوان الخصوص فيقضي أمر تأسيسه بأن ينتخب من أعضاء الديوان العمومي وعدده أربعة عشر عضوًا.

ويقول الكتاب بعد ذلك ببضع صفحات إن نابليون ترك مقاليد الأمور عند سفره في حملة سوريا لرجلين اشتهرَا بالحكمة والدهاء؛ أحدهما الجنرال دوجا، والآخر المسيو بوسيليج، ولم يدخر هذان الرجلان وسعًا في اتباع سياسة الحكمة والمحاسنة إزاء الشعب، ومجاملة أعضاء الديوان واحترامهم ورعايتهم مما حبَّبهما إليهم، وخاصة بوسيليج الذي كان لا يألو جهدًا في اكتساب قلوب أعضاء الديوان بالمودة والمجاملة والمباسطة ورعاية الحرمات ومبادلتهم الزيارة ومجالستهم في أنديتهم، واقتباس بعض تقاليدهم؛ فقد شوهد مرارًا في منزل السادات جالسًا على الديوان يشرب القهوة على الطريقة المصرية ويدخن الشبك ويطارح جلساءَه فنونًا من الحديث في شئون العلم والعمران ونظام الحكومات في

الغرب والشرق. وكانت له مطارحات طويلة مع الشيخ المهدي الذي يعدُّه أكثر أعضاء الديوان علمًا وفهمًا ومعرفة … وهكذا اكتسب الديوان نفوذًا كبيرًا في إدارة شئون الحكومة بما كانت ترجع إليه السلطة الفرنسية في مهمات الأمور، فلم يكن الجنرال دوجا والمسيو بوسيليج شأنًا من الشئون المتعلقة بإدارة الأمن في القاهرة، أو بكل ما له مساس بالشريعة وإدارة الضرائب أو بالتقاليد والعادات المرعية إلا بعد مفاتحة أعضاء الديوان واستشارتهم في تلك المسائل، وكانت تُسمع آراؤهم في معظم الشئون.

وإلى هنا أتوقَّف عن نقل ما جاء به الرافعي، وأصيح وا لَهفتاه على مصر، ويا حسرتا على ما حلَّ بها في سنوات الطغيان والقهر والجبروت، أيحكم المحتل الغاصب مصر بالشورى، ويحكمها ابنُها الذي ينتمي بعروقه إلى ترابها بالحديد والنار والقتل والسجن والاعتداء على الأعراض والأديان والشرف والكرامة، بينما كان الفرنسيون المغتصبون يراعون المشاعر الدينية والمشاعر الإنسانية؟!

لبئس ما رأينا العهد، وقد كنت خليقًا أن أحاول نسيانه فلا أذكره، وإنما أذكرنيه هذا الذي طالعني من كتاب الحملة الفرنسية على مصر، فقد حرَّك الكلامُ الذي قرأتُه والذي نقلتُه إليك الأشجانَ والآلام وآثار الحسرات والأسى، أَوَنُحكم بالشورى منذ ما يقرب من مائتي عام، وفي عهد طاغية أيضًا من طغاة التاريخ هو نابليون، وتُحجب عنا الشورى والحاكم مصري والمحتل قد جلا، وأصبحت البلاد جميعها خالصة لأبنائها، والعصر قد تقدَّم الحكم فيه إلى قمم سامقات من الديمقراطية، وحرية الفرد، وجعل آدميته فوق كل اعتبار لا استثناء لهذا إلا في الدول الشيوعية التي حطمت كلَّ نبيل وشريف في حياة الإنسان، بادئة بالدين ترفضه وتحاربه، وبالإنسان تستذله للقمة العيش، وتمحق كرامته، ثم تحرمه أيضًا من لقمة العيش التي رفعَتْها شعارًا.

وأعود إلى كتاب الرافعي لأقف معه وقفةً أخرى فيها شيء من المقارنة التي تملأ النفسَ لوعة، وتمضُّ القلبَ حزنًا ومرارة. يقول الرافعي في غضون ذلك — يقصد الإعداد لحملة سوريا — حلَّ موسمُ الرؤية لإثبات رمضان عام ١٣١٣هـ، فانتهزها نابليون فرصةً طيبة، وكانت قبل سفره بأيام، فأمر بالمبالغة في الاحتفال، وتفخيم موكب الرؤية تملُّقًا لإحساس الأهالي، وكان الاحتفال عظيمًا بالغًا سار فيه طوائف الصناع كالمعتاد، وذهب المحتسب بهذا الموكب إلى بيت نابليون بالأزبكية، وأبلغوه رؤية الهلال فبالغ في الحفاوة بهم.

وإلى هنا ينتهي سردُ الرافعي ثم هو في ذكاء شديد يورد ما كتبه الجبرتي مؤرخ هذه الفترة، أنقله إليك، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم

وسايروهم، رجعوا إليها — إلى البدع — وانهمكوا في عمل موالد الأضرحة التي يرون فرضيتها، وأنها قربة تُنجيهم بزعمهم من المهالك، وتُقرِّبهم إلى الله زلفى في المسالك. فرمحوا في غفلاتهم مع ما هم فيه من الأَسْر وكساد غالب البضائع وغلوها، وانقطاع الأخبار ومنع الجالب، ووقوف الإنكليز في البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد حتى غلَت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومي (البحر الأبيض) ... إلخ.

وهنا وقفت مرة أخرى ... يا رحمة الله عليك أيها الشيخ الجبرتي، حزنت لأبناء بلدك أن أقاموا الموالد، وذكروا الله بالطريقة التي تفهمها عقولهم. فماذا كنت تراك فاعلًا أو قائلًا لو شهدت ما حدث في بلدك نفسها بعد قرابة مائتي عام، واليهود يمحقون جيشك في ست ساعات ويخلو لهم الطريق من السويس إلى القاهرة ليس فيه جندي واحد. ومجلسك التشريعي من أبناء مصر لا الفرنسيس، ولا اليهود في فرحة غامرة وسعادة طاغية حتى ليعتلي أحدهم صهوة مقاعد المجلس، ويروح يرقص بعد أن عقد الحزام على وسطه.

ولكن لا تحزن يا جبرتي في قبرك لكل عصر جبرتي، ونحن ما زلنا نعيش آثار هذه الفترة وإن كنا قد تجاوزناها والحمد لله.

ولك التاريخ لن يتجاوزها، وإنما هي محفورة فيه، وإن وجدت الفترة اليوم مَن يدافع عنها؛ لأنه كان منتفعًا بها أو والغًا في دمائها فالغد سيأتي وتصبح الحقيقة هي السيد الأوحد في الميدان يصحبها التاريخ، وتقرأ الأجيال هذه الصفحات السود من تاريخ مصر كما نقرؤك نحن اليوم يا خالد الذكر يا جبرتي، ويوم ذاك سيكون الظالمون قد عرفوا أي منقلب قد انقلبوا إليه.

فإن الله سبحانه غالبٌ على أمره منذ الأزل وإلى الأبد الأبيد.

الأشجار والأعشاب وصالون العقاد

أقرأ في هذه الأيام كتاب أخي الكاتب أنيس منصور عن أستاذنا وأستاذ الجيل الذي سبقنا والأجيال اللاحقة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها عباس محمود العقاد.

وقد عرفت أنيس منذ قرابة ثلاثين عامًا، وكان التعارف مقالة له في الأخبار فيها عنف، رددتُ عليها بمقالة فيها نفس العنف بجريدة المصري. ولم نكن حينذاك قد التقينا، ولم تمرَّ على المقالتَين أيام حتى التقينا بدار الأوبرا المصرية، وتعارفنا وتوطدَت بيننا منذ ذلك الحين صداقةٌ تزداد على الأيام عمقًا لم يَشُبها في يوم من الأيام إلا ما يزيدها توثقًا وألفة وتقاربًا. وهكذا تحقق بيننا المثل السائر الذي لا أومن به «لا محبة إلا بعد عداوة»، ولكنها كانت عداوة يسيرة هينة لم تبقَ من عمر الزمن إلا أيام لا تكتمل أسبوعًا، ولكنها أمدَّتنا بحادثة ظللنا نتندر بها هو وأنا كلما ساق إليها الحديث بيننا.

وأحسب أنني قرأت كلَّ ما كتب أنيس منصور سواء كُتب في كتاب أو انتثر في مقالات.

وأنيس صاحب أسلوب أعتبره من أذكى الأساليب العربية، وقد استطاع في مقدرة فائقة أن يحافظ على الكلمة العربية الشريفة، وعلى النحو وأصول اللغة، ولكنه استطاع أيضًا أن ينفرد بأسلوب خاص تلمع فيه الومضات التي تدل على الذكاء الحاد، وعلى الثقافة العريضة في وقت معًا. ويمتاز أنيس بالاطلاع الواسع الذي يصل إلى مرتبة الإذهال، ثم هو يمتاز بشيء أهم من ذلك، فهو قادر على أن يستحضر ما حصَّله عندما يكتب بصورة لا أحسب أنها تتوافر إلا لقلة نادرة من الكُتَّاب، وربما كنت ظالمًا لأنيس بهذه الجملة الأخيرة.

وما كان لي أن أكتب عن كتاب أنيس الأخير «في صالون العقاد»، فإن هذا من عمل الناقد ولست به، وقد أوشكت فعلًا أن أترك للنقاد هذه الفرصة؛ بل إنني قد رجوت زميلي الدكتور عبد العزيز شرف أن يتصدى لهذا. ولم أكن قد بدأت قراءة الكتاب بعد،

حتى إذا بدأتها بادرت أطلب الدكتور شرف وأسأله إن كان قد بدأ الكتابة، فحين علمت أنه لم يفعل عُدت أرجوه أن يؤجل مقاله، ويترك لي أنا الفرصة. وما كان هذا عن رغبة مني في تحية صديق جمعتني وإياه فترة امتدت إلى ثلث قرن من الزمان، وإنما كان ذلك لأنني وجدت في الكتاب نفسي، وأبناء جيلي، وقد استطاع أنيس في ذكاء باذخ أن يقدمنا إلى الأجيال اللاحقة، وهكذا كان من الحتم أن أكتب، فهذا الذي يقدِّمه أنيس هو حياتي وحياة زملائي ولِداتي وأبناء زماني. وإن كان أنيس قدم هذا في السديم المحيط بكوكب العقاد فإن العقاد كوكب من كواكب جيلنا كله، وليس منَّا مَن لم يَدُر في فلكه كما دُرْنا في أفلاك الآخرين من الكواكب أو قُل الشموس إذا شئت، ولن تكون مبالغًا فجيلي سطع عليه العقاد، وطه حسين، والدكتور هيكل، وتوفيق الحكيم، والمازني، بل إننا أيضًا رأينا نحن العاملين في ميدان الرواية والقصة جزءًا كبيرًا من الطريق على ضياء نجيب محفوظ؛ وهو الجيل الذي يفصل بيننا وبين جيل العقاد وطه أو إن شئت فقل إنه الجيل الذي يكون أحد الوشائج بيننا وبين الجيل السابق عليه.

ونحن أبناء هذا الجيل الذي ينتسب إليه أنيس منصور؛ عشنا الحرية وهي مزدهرة على رغم الاحتلال الأجنبي، وتمتعنا بها، والقيود تنحسر عن أطرافها شيئًا فشيئًا، وتزداد ازدهارًا فيها وتألقًا، ثم رأينا القيود تنثني عائدةً إليها تُقيدها ولكن لا تقتلها، وتعوق انطلاقها ولكن لا تحبسها ثم تتساقط القيود وتعود الحرية إلى الانتعاش. وفجأة عصف بنا الطوفان وماتت الحرية وشهدها الجيل الذي جاء بعدنا قتيلًا لا وجود لها، فحسب المسكين أن الأصل في الحرية أن تكون قتيلًا، فهي عنده كلمة بلا معنى، وتاريخ كان ثم اندثر، وحياة عاشت في مكان ما، ثم قتلت وأمسَت بلا حياة، وكأنها لم تكن من قبل حياة.

وبين مدِّ الحرية وانحسارها تكوَّن جيلنا وبدأنا معه مسيرتنا كلٌّ من الباب الذي فتحته له الحياة ليرى إلى الحياة ويتعرف عليها، ورُحنا ننهل من الموارد الشتى سكارى مفيقين نشاوى متيقظين، فرحين في أمل، ناظرين إلى المستقبل دون أن نخاف صلبة تلك الأرض التي نقف عليها، واثقة خطواتنا حتى وإن كانت مضللة الطريق. كنا نُخطئ ونصيب لأننا بشر، ولكن كنا نؤمن بأن خطأنا هو الصواب حتى تردَّنا الحقيقة إلى طريقها، فلا نفزع ولا نخاف وما لنا لا نُخطئ، وكيف نكون بشرًا إذا نحن لم نُخطئ. ولم يكن الطوفان في حسباننا ولا كان في حسبان أحد، حتى إذا عصف كانت أعوادُنا هينةَ المكسر، ولكن كانت جذورها ضاربة في أرض القيم الرفيعة والخلق الأشم، والإيمان بأنه هو الله الأحد الفرد الصمد لا نخشى غيره، ولا يهزُّنا سلطان إلا سلطانه جل وعلا، كنَّا جيلًا ينتسب إلى جيل ثورة ١٩ بالمولد كما أنتسب أنا إليه، فأبي واحد من رجالها أو

بالصلات والتعرف على هذه الكوكبة من مشاعل هذه الثورة. كما تعرَّف أنيس بالعقاد ذلك الرجل الذي خرج من السجن فلم ينتظر حتى يذهب إلى بيته ويستريح هونًا من عذاباته، وإنما يصيح بقصيدته الخالدة أني قد خرجت منه كما أنا صحبي هم صحبي وعدوي هم عدوي ما اختلف لي رأيٌ ولا صال لي لون. وتعرَّف جيلُنا على هيكل إن لم يكن بالصلة الشخصية فبما يُروى عنه حين اعتذر له الملك السابق أن رئاسة الوزارة إن تكن أخطأَتْه فهي في طريقها إليه عما قريب، فإذا هو يصرخ في وجهه باللفظ لا بالحنجرة إنني حين أجلس إلى مكتبي لأكتب يصغر في عيني كلُّ كرسي لمنصب في العالم، يوشك الرجل أن يقول له حتى كرسي عرشك، ومن هذا الجيل عرفنا معنى أن يكون الإنسان كاتبًا، كاتبًا فقط بلا كرسي ولا سلطان ولا منصب، ورأينا هؤلاء الرجال في العاصفة يقف العقادُ الأبيُّ وهو لا يكاد يجد قوتَ يومه رافضًا أن يحنيَ رأسه أو يقول غير ما يعتقد، كان هذا الجيل هو إمام جيلنا وكان مثلنا الأعلى.

ويُرفت أنيس من جريدة الأخبار، وأشهدُ بعض أصدقائه يعرضون عليه المال فيأبى في عزَّة وفي تواضع، وأنا أعلم أنه أحوج ما يكون إلى هذا المال الذي يُعرَض عليه ويُعرِض عنه. وأشهد العاملين في الإذاعة وهم يتجنبون الحديث إليه وهو مَن كانوا يسعون إليه، ويبتسم ثم يُطلق النكتة اللاذعة الذكية العميقة والخالية من الحقد أو المرارة في نفس الوقت. فهو يعرف أنهم صغار وشأن الصغار أن نعطف عليهم ولا نحقد.

وتنصب الأشجار الباسقة العملاقة من جيلنا عرفَت طريقها إلى السماء بعد أن مهَّده لنا آباؤنا رجال ثورة ١٩ ويعشوشب بعض أفراد من جيلنا، ويظل صغيرًا ملتصقًا بالأرض أو بالحضيض لا قيمَ له حتى يشبَّ بها. فيتهافت هشيمًا أو نباتًا جافًّا هزيلًا يذروه الهواء ولا أقول الرياح، ويحقد العشب على الأشجار ويحاول أن ينفث حقده في وقاحات مخدرة متخاذلة وتضحك أشجارنا، فمن شأن الأعشاب أن تحقد على الأشجار، ومن واجب الأشجار أن تُشفق على الأعشاب حين يطؤها الرجال والنعال.

وإنني أستوحي جملة من العقاد نفسه، وأنا أكتب هذا الحديث عن الأشجار والأعشاب.

ورعاك الله يا أخي أنيس، أرجعتَ إلينا نفوسنا ورددتَ إلى كهولتنا صبانا وشبابنا.

وذو الشوقِ القديم وإن تعزَّى مشوقٌ حين يلقى العاشقينا

لقد خلتني إياك وأنت تسترد مقالات كتبتها، وأحسست أنك نسجتها على نَول العقاد. فقد صنعتُ الصنيع نفسه حين كتبت مقالةً وجدت وأنا أقرؤها أنها ظلٌّ باهت لطه حسين. فقد كان جيلنا يريد أن يكون لكلٍّ منه نوله هو وقلمه الذي يتمتع باللون الخاص به، فلا يكون تابعًا لأحد مهما يكن هذا المتبوع العقاد أو طه حسين. لقد قدَّمتنا يا أخي أنيس إلى الأجيال التي تلينا خيرَ تقدمة، ولو لم تكن فعلت بكتابك إلا هذا فحسبك فقد صنعتَ جيلًا وأقمت بناء باذخًا ... هنيئًا لك.

من فيض الكريم

أقرأ هذه الأيام كتابًا من أعظم ما كتب كاتبنا الكبير الأستاذ يحيى حقي. الكتاب بعنوان «من فيض الكريم»، وهو فعلًا من فيض الله سبحانه وتعالى على الكاتب، والكاتب الكبير يحيى من هؤلاء الذين حين تستمع إليهم تحس بشعور عميق أن الكاتب كثير التفكير يُعمل عقله في كل ظاهرة من ظواهر الكون، وهو لا يكاد يفلت خلجة من خلجات الحياة دون أن يُوسعها تفكيرًا وتقليبًا لكل وجه من وجوهها، وهو في هذا الكتاب مؤمنٌ مستقر الإيمان مطمئنٌ كل الاطمئنان أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ويطالعك هذا الإيمان المستقر المطمئن منذ العنوان الأول في كتابه «لماذا أنا سعيد لأني وُلدتُ مسلمًا».

وتُطالعك هذه المقالة بأعظم أنواع الإيمان، ذلك الإيمان الذي يمتزج فيه العقل بالروح والفكر بالشعور. يقول في مطلعه: «إننا في الأغلب الأعم نَرِث ديننا، نشبُّ على عقيدة آبائنا، فلو كنت مسيحيًّا مثلًا أسلمت بعد بحث ومقارنة واختيار لحُقَّ لي أن أكتب هذا المقال تحت عنوان «لماذا أنا مسلم» فمن أجل الصدق وحده أجعل عنوانه «لماذا أنا سعيد لأني وُلدت مسلمًا»، ولا أكتبه إلا في نطاق مبدأ عام: أن الأديان كلها طرق متباينة متفرقة، ولكنها تؤدي جميعها إلى ساحة واحدة، ومع ذلك فأنا سعيد؛ لأني وُلدت مسلمًا، لأن الإسلام جاء للإنسان بنظام يجد فيه فكرة سموه لا انحطاطه، راحته لا عناءه.»

ثم يمضي الكاتب الكبير في مقالته التي أسمح لنفسي أن ألخِّص ما حوته؛ فهو يرى أن هذا النظام الذي أتى به الدين الأعظم يستند إلى وحدانية الله سبحانه، وكل تفكير لا بد أن يؤدي إلى وحدة الكون في عقل الإنسان. وإزاء الكون الواحد لا بد من إله واحد. هو خالق هذا الكون الواحد، وبما أنه خالق الكون كله فهو رب البشر جميعًا لا يختص به شعب الرسول دون بقية الشعوب. ويقول الأستاذ يحيى حقي في نقلة أخرى إنه ليس في كتاب غير القرآن مثل هذا الإلحاح المفصل على الإنسان ليُعمِل عقله، ويتدبر الكون،

ويفهم أسراره، حتى لقد ارتفع طلب العلم إلى مقام الفرائض. ثم يقول الكاتب الكبير إن العقيدة علاقة حميمة بين الخالق والمخلوق لا تحتاج لوسيط. ويمضي الأستاذ يحيى في مقاله على هذا النسق الرفيع من المنطق الذي يجعل الإيمان أمرًا يحتِّمه العقل، وإذا سرنا عمقًا مع مقالة الأستاذ يحيى هذه لوجدنا أن الإنسان الطبيعي غير ذي العوج في المنطق أو الفهم، وغير ذي الهوى لا بد أن يؤمن بوحدانية الله وبعظمة الدين الإسلامي وسموقه وتمكُّنه. وإن دعوة الكتاب المنزل للتفكير هي وحدها أعظم دليل على قوة الدين ومتانته، وأنك لتذكر آية واحدة من القرآن فلا تملك إلا أن تخرَّ ساجدًا للواحد الديان، «وفي أنفسكم أفلا تبصرون»، سبحانك جل جلالك.

وتذكر هذه الصلة المباشرة بين الإنسان وبين ربِّه فترسخ في نفسك عظمة الخالق؛ فالخالق وحده هو الذي يجعل نفسه موئلًا لكل الناس وليس لفئة دون فئة، ولا حتى لأَتْباعِ دينٍ دون دين آخر. وقد يطيب لي أن نتعمق معًا ذلك العنوان الذي اختاره الأستاذ يحيى؛ لماذا أنا سعيد لأني وُلدتُ مسلمًا، فقد يدخل في روع البعض أن معنى ميلادي مسلمًا أنني لم يكن لي اختيار في عقيدتي، وإنما هي فُرضت عليَّ بحكم المولد، وهذا معنًى مرفوض جملةً وتفصيلًا. فإننا نولد مسلمين ونظل مسلمين بحكم المولد حتى نصلَ إلى مرحلة التأمل والفكر. وحينئذٍ نتعمق ديننا، ونلبث عليه مختارين بالحرية الكاملة وبالفكر البعيد عن كل مؤثر خارجي، وإنْ فعلنا غير ذلك نكن منافقين مخادعين لأنفسنا وللناس جميعًا. ويكون إسلامنا غير مقبول عند الله؛ لأنه سبحانه في علياء سماواته رضيَ لنا الإسلام دينًا على أن ندخلَه مختارين لا مرغمين أحرارًا لا تابعين.

والآيات كثيرة؛ كقوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾، وكقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾، والآيات في هذا المعنى متواترة. فإذا عجبت معي لقوم يريدون أن يجعلوا من أنفسهم أنبياء ومسيطرين في وقت معًا، ويريدون أن يكونوا مبلِّغين وما هم بمبلغين ومحاسبين وما هم بآلهة. فإن لم يكن هذا هو المروق والفوضى فماذا يكون؟! وأنتقلُ في ربوع الكتاب القيم «من فيض الكريم» للأستاذ يحيى حقي فأقف عند مقالة له بعنوان «لبيك اللهم». يقول في مطلعها، «نويت أن أصلي، نويت أن أصوم، نويت أن أحج، يتطلب الإسلام ممن يؤدي فرائضه أن يكون أول شيء يفعله هو أن يحزم أمره ويعقد نيته على أداء الفريضة ولو سرًّا بينه وبين نفسه والجهر بها أفضل ينطق اللسان وتسمع الآذان، ويستقر في الوجدان ويتجسم المعنى في كلمات واضحة لها رنينها ومقالها وأريجها في عقد النية وإعلانها توفيرًا لكل الضمانات على صدْقِها وقضاءً

على نوازع التشكك والتردد، وهو التوقيع على صك التعهد والإحساس بالالتزام وإعلانه وقبول تحمُّل مسئوليته، فهو يتطلب منه أن يتيقَّظ كلَّ التيقظ لما هو قادم عليه من قبل أن يُقدم عليه فلا يؤديه أداء آليًّا، وذهنه سارح أو غافل أو مشغول بأفكار ومطامع.»

إلى أن يقول الأستاذ يحيى: «لا عجب أن بدأ البخاري بحديث شريف كأنه لحن افتتاحية لسيمفونية عظيمة لا حدَّ لإعجابي به وحبي له ولا ينقطع لساني عن ترديده كأنَّ كلماتِه فصوصٌ من الماس ...» إلى أن يذكر الحديث الشريف وهو قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.»

وقد أُعجبت بهذه المقالة في الكتاب كلَّ الإعجاب، ورُحْتُ أفكِّر، وما لبث أن ومضَ ذهني خاطرٌ مضيء كأنه نورٌ مشعٌّ. إنما الإسلام كله مسئولية ونية، المسئولية هي ظاهر الأعمال والنية هي الباعث الخفي، ونحن أمام البشر أجمعين ليس لهم منَّا وليس علينا لهم إلا الأعمال إما خافية نفوسنا فهم لا يريدون منها شيئًا، وإن حسبوا أنهم يعلمون، أما نحن أمام الخالق فمحاسبون على العمل وعلى النية جميعًا. وقد نخطئ في عملنا مع البشر فيحاسبنا البشر حسابًا عسيرًا؛ لأنهم لا يعرفون ما تنطوي عليه ضمائرنا. أما إن أخطأنا عن غير قصد في مسئوليتنا الدينية أمام الله سبحانه الذي يعلم السر وأخفى والمطَّلع على طوايا النفس وأحنائها فإنه يمحو عنَّا خطأنا وكأننا ما أخطأنا؛ ولذلك فإنني أندهش حين أسمع قائلًا يقول لآدمي: «يا أخي، اغفر خطأ فلان فإن الله يغفر.» وهذا منطق مقلوب؛ إن الله يغفر لأنه الله، ولأنه الرحمن، ولأنه الرحيم، ولأنه الغفور، ولأنه المطلع على خفايا الضمائر وأعماقها. أما البشر فما هو برحمن ولا هو برحيم ولا بغفور ولا هو بمطلع على الضمائر وإن ادَّعى ذلك. ومن أجل هذا فإنه لا يغفر إلا القومُ الأقربون إلى الله جل علاه.

ومن هنا أعجب معي مرة ثانية وثالثة وألْفًا من هؤلاء الذين نصَّبوا أنفسهم قوامًا على ديننا. أين هم من ذلك؟ وَهِموا وضلُّوا وضللوا وخاب سعيهم، وفشل رجاؤهم من أيِّ تشريع أعطوه لأنفسهم هذا الحق. وما هو لهم حق. أيحسبون أنفسهم آلهة. أين هم من ضمائرنا ومن إيماننا الذي لا يدريه إلا الله وحده، والذي اختص نفسه سبحانه بالاطلاع عليه، أم يريدون أن يجعلوا الناس أمامهم يقومون بمظاهر الدين وما يبدو منه، أفهذا هو الدين عندهم، ساء ما يحكمون، إن الدين لله وحده، وهو وحده سبحانه موئلنا وملاذنا إليه صلاتنا وصيامنا وزكاتنا وحجنا. وإن لم نؤدِّ هذه الفروض بالنية الخالصة لذاته — جلَّت ذاته — فهو وحده القادر على أن يردَّها علينا غير مقبولة. فما هو بحاجة إلى توحيدنا ولا إلى صلاتنا، ولا صيامنا ولا زكاتنا ولا حجنا، فإنه سبحانه هو الغني

عن العالمين، فكيف لهؤلاء المتطرفين أن يعرفوا عن أي مصدر في نفوسنا نقوم بطقوسنا الدينية؟!

إنهم يريدون أن يركبوا الدين وسيلة إلى التحكُّم فينا، وويلٌ لنا كلَّ الويل إذا تمكَّن هؤلاء، وأي فئة أكثر ضلالة من فئة تستغل دين الله وهو دين الله ليصلوا به إلى مطامع دنيوية فانية، وإذا كانوا لا يعرفون أن كل سلطان إلى زوال إلا سلطان الله. فما شأنها بالدين إذن؟! وإذا كانوا لا يعلمون أن الدين إنما هو احتقار للدنيا وسعيٌ إلى العليا، وعزوف عن الفانية نظرًا إلى الباقية، وإذا كانوا لا يعلمون أن الإنسان كادح إلى ربه كدحًا فملاقيه، فهم إذن أبعد ما يكونون عن جوهر الدين ولبابه؛ فليتخذوا لأنفسهم ملعبًا يلهون فيه وبه، وليتركوا الدين لعلمائه وفقهائه وليتركوا الناس ليعبدوا ربهم الذي خلقهم والذي يعلم ما ظهر منهم وما بطن وهم له عابدون. حبًّا وأملًا ورغبًا ورهبًا، وأن الناس في غناء عن قوم يريدون أن يفرضوا أنفسهم عليهم طواغيت وجبارين، والله سبحانه وتعالى جل أن يكون الجهلاء دعاة لدينه الأقوم ولكتابه الكريم.

قراءات ومشاهدات

قرأت في الفترة القريبة الماضية روايتَين ومجموعة قصصية؛ أما الروايتان فهما «تمساح البحيرة» للأستاذة إقبال بركة، و«الاختطاف» للأستاذ حسن محسب. وأما المجموعة القصصية فهي «النبش في الدماغ» للأستاذ أحمد الشيخ. وشاهدت على طول شهر رمضان أغلب مسلسلات التليفزيون، وإنما يعنيني منها مسلسل «محمد رسول الله»، وحسبي رسول الله ﷺ سببًا للكتابة؛ أما رواية الأستاذة إقبال بركة فهي رواية عظيمة بكل المقاييس الفنية، وقد استطاعت الكاتبة المتمكنة أن ترسم شخصية البطلة بكل المشاعر التي تتراوح في نفس فتاة في مثلِ سنِّها ومثل ظروفها الاجتماعية والعاطفية، وكما كانت إقبال موفَّقة في رسم هذه الشخصية، واكبَها نفسُ التوفيق في رسم شخصيات الأم وصديق الزوج، وكانت بالغة التوفيق في رسم شخصية الأب. ولعله من المناسب هنا أن أتكلم عن شخصية الأب هذه فهي شخصية مسطحة، وقد جرى كثيرٌ من النقاد أن يجعلوا من كلمة مسطحة هجومًا على رسم الشخصية، جاهلين أن أعظم الشخصيات الدرامية هي الشخصية المسطحة؛ لأنها الشخصية التي تهَبُ نفسها لقضية واحدة لا يشغلها في الحياة غيرها، وحينئذٍ تصبح الشخصية شخصية بطولية لا يُعنَى المؤلف من شأنها إلا بالقضية التي كرَّست نفسها لها، وأعماق هذه الشخصية هامة في الناحية التي تتصل بالقضية التي حرص الكاتب على أن يرصد الشخصية للدفاع عنها؛ فشخصية جان دارك مثلًا شخصية مسطحة، وهي مع ذلك من أعظم الشخصيات الدرامية التي عرفتها الأعمال الروائية أو المسرحية على السواء، وهكذا يقع النقاد في أحبولة الكلمة ويظنون أنهم يحطمون الشخصية الفنية إذا وصفوها بأنها مسطحة، وإنما يعيب الشخصية أن تكون سطحية، وهنا تتجه الكلمة إلى معنًى آخر هو السذاجة وعدم الإقناع، وهذا طبعًا يعيب العمل الفني ويوشك أن يحطمَه. وأشهد أن شخصيات رواية «تمساح البحيرة» جميعًا

بعيدة عن السطحية، إلا شخصية واحدة اعتمدت فيها الكاتبة على ما كانت تنشره وسائل الإعلام دون معايشة لنماذج هذه النفر من الناس. هذه الشخصية هي شخصية الجد في روايتها، فواضح أن الأستاذة إقبال لم تعرف نموذجًا لمثل هذا الجد قط، ولهذا جاء رسمها للشخصية ترديدًا لشعارات هيئة التحرير والاتحاد الاشتراكي، وهكذا أصبحت هذه الشخصية باهتة ساذجة سطحية وليست مسطحة، وأنا كنت أرجو للأستاذة إقبال وهي على القدر من الموهبة أن تتعمق هذه الشخصية وتتعرف على أبعادها ولا تكتفي في شأنها بألفاظ جوفاء تعطي وجهًا واحدًا باهتًا لفئة قامت على أكتافها وعلى كدحها لفترة طويلة أعمدة الاقتصاد المصري. وإن كان في بعض من أفرادها عيوب فقد كان ينبغي على الكاتبة أن ترى إلى الشخصيات الأخرى التي تُمحَى عندها هذه المثالب، وكان عليها في رسمها للنموذج الواحد أن ترى فيه الجانبَين، وترى في سماته كل معالم هذا النموذج، وهي سمات كثيرة، فيه الرفيع السامق وفيه أيضًا المادي الذي لا رفعة فيه ولا سموق. وحان لي الآن أن أنتقل إلى رواية الأستاذ حسين محسب «الاختطاف» وهي رواية تدل على براعة الكاتب وفطنته وقدرته على رسم المجتمع الذي اختاره في تفوق وعمق؛ فشخصية الزوجة مرسومة بريشة قادرة صناع، وشخصية الزوج الذي عاش فترة من أبشع فترات مصر وهو المصري الصميم الذي تجري دماء مصر في أعراقه منذ آلاف السنين، وأحسب أن هذه الشخصية التي رسمها الأستاذ حسن محسب تعتبر نموذجًا رائعًا لعصره جمعَت جوانب من الحياة شقيت بها الحياة وشقيَ بها بخاصة هذا الجيل الذي يمثِّله بطلُ الرواية. وكان الأستاذ حسن محسب عظيمًا حين نفذ إلى الرواية في سرعة السهم، فإذا نحن منذ اللحظة الأولى في أعماق المشكلة التي اختارها لروايته، وإذا هو يجسِّد الفجيعة في سرد روائي بارع ثم هو يلاحق هذه الفجيعة في نفس البطل، ويُظهرنا على آثارها، ثم ينتقل في براعة إلى ما كان في حياة البطل من إحباط بسبب القوة الغاشمة والسلاح الظالم، والرواية كلها صراع بين حق الإنسان في الشرف والحياة وبين السلاح الذي لا يعرف حقًّا.

وحسن محسب كان موفقًا كلَّ التوفيق في رسم هذا الصراع بقلم يجمع إلى الفنية القادرة الإنسانية البلُّورية الشفيفة، وإن كان لا بد لي أن آخذ على الكاتب شيئًا، فهو أنه افتعل التشويق في نهايات بعض الفصول، بينما الرواية بطبيعة موضوعها وبقدرة مؤلفها كان فيها من التشويق ما يكفيها ويزيد.

أما المجموعة القصصية التي قرأتُها للأستاذ أحمد الشيخ فقد وجدت في قصصها أديبًا متمكنًا قادرًا، يعرف كيف يضع كلمته ويصونها عن أن تكون لهوًا؛ فالكلمة معنى

يختارها الكاتب في قدرة حتى لا تحتاج إلى مرادف لها، فهي حادة قاطعة قوية شاعرة. إنها في مكانها الطبيعي، غير قلقة ولا هي متوفزة.

وموضوعات القصص بالغة الذكاء تموج بالإنسانية والشفافية، وطريقة العرض تجمع إلى الحداثة والتجديد، المنطقَ والمعقولية، فهو كاتب عصره ويعبر عنه لأبناء الجيل وبلغتهم وبأسلوبهم، فهو يفهم معاناتهم لأنه منهم وهم يفهمون عنه ويحسون أنهم هم أبطال قصصه، وأن عناء المؤلف هو عناؤهم، والذي يشغله في الحياة هو الذي يشغلهم.

أترك الكتاب بعض الشيء وأنتقل معك إلى مسلسل الرسول ﷺ. وأبدأ بأن أهنئ نور الدمرداش عميد مخرجي التليفزيون بهذا العمل العملاق الذي قدَّمه إخراجًا، أما النص فلي عنه بعد ذلك حديث. أما نور الدمرداش كمخرج فقد بلغ قمة التوفيق؛ فقد استطاع أن يقدم إلينا المسلمين أعزة شامخين لا أذلة ضعافًا خانعين، يلبسون أكرم ملبس متفرحين بما أتاهم الله من فضله في الدنيا، مقبلين على أعتاب الآخرة إقبال المشوق المعدم الذي لا يشعر بأن له في هذه الدنيا ما يبقى عليه، وهذا هو قمة الإيمان؛ فالذي يُقبل على الموت وهو ضيق بالدنيا رجلٌ ضعيف الإيمان، أما الرجل الذي تطالعه الدنيا بوجهها الباسم المشرق فيُقبِل عليها في غير معصية ولا جنوح عن سنن الله ونبيه ﷺ، حتى إذا دعا داعي الجهاد أقبل على العليا إقبالَه المتعجل الهانئ السعيد بكل ما يتكشف عنه مصير المعركة: فإما نصر فحياة في الدنيا، وإما نصر فحياة أكرم وأعظم في العليا خالدًا هناك عند ملك الملوك رب العرش سبحانه وتعالى.

واستطاع نور الدمرداش أن يقدِّم إلينا الشخصيات المؤمنة سعيدة باسمة؛ فحطم بذلك الطقوس البغيضة التي ترسم المسلم حزينًا دائمًا كسيرًا مكثرًا غاضبًا. وتلك عجيبة من عجائب الزمان. ما الذي يُحزنه وهو الذي عرف الطريق واتصل ما بينه وبين الإيمان، وأي شيء يملأ النفس سعادة وهناء وحبورًا وطمأنينة ورضًا وفرحًا وإشراقًا مثل الإيمان؟! وكلما كان الإيمان عميقًا ازدادت السعادة والهناءة والحبور والطمأنينة.

إن نور الدمرداش ما زال يقتعد قمته التي عرفها له العالم العربي، لم يتركها؛ بل أحسب أنه يصنع لنفسه قممًا جديدة، أما النص فلي عليه قول آخر، فالأستاذ صبري سلامة خيرُ مَن يتكلم العربية في الإذاعة، وأنا لا أقول من خير، ولكن هو خيرُ مَن يتكلمها، ولكن الحوار التليفزيوني أمرٌ آخر والحوار في عصر النبي ﷺ أمرٌ آخر هو أيضًا. فالصياغة التي نسمعها في الحوار وإن كانت مطعَّمة بالكثير من الأساليب العربية، إلا أنها هي نفسها حديثة، وليست هي الصياغة العربية التي تواكب ذلك الزمان. وقد

سمعنا النغمة الصحيحة في أسمى مراتبها من الكاتب الكبير عبد الفتاح مصطفى، فإن لغة هذا العصر كانت تجري على ألسنة الأبطال وكأنهم هم الذين يتحدثون من وراء التاريخ، ولكن هذا لا يمنعني أن أرحب بأخي الصديق صبري سلامة في ميدان التمثيلية، وأحسب أنه سيبلغ المكانة الجديرة به إذا هو قدَّم إلينا أعمالًا في عصور أكثر حداثة عن عصر النبي عليه الصلاة والسلام.

بين الخطيئة والغفران

مسكين ذلك الإنسان، يبدأ حياته طفلًا فالدنيا حوله نور وطهر ونقاء وتتزاحم عليه من الكبار دعاوى الشرف والزهد والعدالة، ويتعرف على دينه فيجده ضياء وإشراقًا وسموقًا، ثم يدلف إلى باب الحياة، وويل له حين يدلف إلى الحياة؛ تحيط به مغريات الجسد وحاجات الإنسان إلى الغنى، ويجد أن الإنسان لا يصيب مالًا وافرًا إلا إذا فقد طهرًا أو كرامة أو نقاء، وتلح عليه الحياة بسعارها، ويتمزق بين أضواء الطفولة وبراءتها وبين مغريات العصر وسفالاته؛ والاختيار له وحده. فالله سبحانه في علياء سمائه هدى عبادَه النجدين وألهم النفوس فجورها وتقواها، وجعل لكل إنسان طائره في عنقه، وترك له حق الاختيار فهو إما جانح إلى قويم من النجدين، أو جامح إلى معوج منهما.

ويشفق رسول الله ﷺ على أمته جميعًا ويقول في شموخ الإنسان الصادق وعظمة الأنبياء: «حُفَّت الجنةُ بالمكاره.» فالذي يختار الطريق إلى الجنة يُكره نفسه أن تختار غير ما تهوى، ويلويها أن تميل إلى ما تهفو إليه من متعة عاجلة محققة. وتتكالب المغريات على الإنسان الضعيف فينزل ثم يثوب إلى رشده فيطلب الغفران ويقول الشاعر:

وإني لأرجو الله حتى كأنني أرى بجميل الظن ما الله فاعله

فهو واثق من الغفران؛ لأن الله سبحانه شرع الغفران للخطائين. ولو لم توجد الخطيئة ما سمَّى الله نفسه بالغفور. ويقول أبو نواس:

إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمَن يلوذ ويستجير المذنب

ولكن الإنسان لا يقمع نفسه عن الخطيئة؛ بل ظل متعلقًا بها تغريه متعتها ويطيبه إغراؤها وتجتذبه نشوتها. فإذا ورعه من الإيمان وازع ردَّه بالأمل في المغفرة. ويمضي إلى خطيئته لا يلوي على شيء حتى إذا انحسر خمارها وثاب إلى نفسه اللوَّامة تاب وآب وعاد يرجو الله سبحانه الغفران. وهل هناك أوسع من مغفرة الله. سبحانه هو بارئ النفوس، وهو العليم الخبير بضعفها، وهو العليم بما يصنعه الشيطان من تجميل الشر، ومَن جعل الشينَ زينًا، والمقبوح من الفعل مكسوًّا بالرواء والبهاء والجاذبية.

ويظل الإنسان بين شدٍّ وجذب وبين إقبال على المحرمات وانصراف عنها. ويبلغ أحدُهم الكِبَر وتحيط به الشيخوخة، ويضطره العجز إلى الاستقامة، ولكنها استقامة هو مرغم عليها، ولم يقصد إليها عن اختيار، فهو تائب في غير عفة، ولا يقعد به الكِبَر أن يصرح بذلك فيقول ذلك البيت الشهير:

هل الله عافٍ عن ذنوب تسلَّفت أم الله إنْ لم يعفُ عنها يُعيدها

وما رأيت بيتًا يجمع التوبة والفجور في شطرَيه كما يفعل ذلك البيت، فهو يرجو الله أن يغفر الله وهو في الوقت ذاته لا يخجل أن يقول للذات العليَّة إذا كان لا بد من العقاب فلا بأس، ولكن أرجو أن تُتاح لي القدرة على إتيان ذنوبي مرة أخرى لتتوافر لي المتعة ما دامت المغفرة غير متاحة، وهكذا نجد أن الفجور قديمٌ قِدَم الصلاح، وأن الفجور لا يقف به أمدٌ ولا ينتهي عند حدٍّ كما أن الصلاح عميق الأغوار بعيد المدى، والإنسانية تتأرجح بين الجانبين بغير حيرة، وإنما عن بصيرة ووعي، وفي الوقت بين رغبة عاجلة في متعة عابرة، وبين إيمان عميق الجذور يرجو وجهَ غفور رحيم.

والإنسان ظالم لنفسه؛ فهو الذي اختار أن يحمل الأمانة التي أشفقت منها السماوات والأرض والجبال وأَبَيْن أن يحملنها، حتى إذا استجاب الله لسؤال الإنسان، وألقى على كتفَيه أمانة الاختيار تخبَّط في حياته هذا التخبُّط، وراح يضرب في الأرض ونظره إلى السماء فهو بين رغبات الأرض، وبين إيمانه بالسماء في شدٍّ وجذب وإقبال وإدبار.

ويضيق بعض الناس فيُعلن إلحادَه وكفره مختارًا اليأس مفضلًا له عن رغب الانتظار، موهمًا نفسه أن اليأس إحدى الراحتين، ولكن هيهات فالملحدون أشدُّ الناس عذابًا؛ لأنهم في البعيد من نفوسهم أنهم على باطل وهم في أعماقهم يتمنون أن يحظوا بالجنة التي وعد الله بها المتقين من عباده، ولكنهم يُدركون أيضًا أنهم أبعد الناس عنها بما كفروا وألحدوا، ويظلون مع أنفسهم في صراع مرير بين ما أعلنوا من إلحاد، وما

تشعر به قلوبهم من أن صاحب هذا القرآن لا يقول إلا حقًّا. وما تزال أفئدتهم بين يأسٍ وأمل وبين إقدام وإحجام؛ فعل اللص المبتدئ يمدُّ يدَه للسرقة برغبة الغنَى حتى وإن كان عن طريق محرَّم، ويكفُّ يدَه بأمل التوبة والغفران من الرحمن الرحيم الذي وَسِع غفرانُه ذنوبَ البشر وشملت رحمتُه المؤمن والعاصي والعابد والعربيد والقانت والزنديق. ويقول شوقي الخالد في رثاء إسماعيل أباظة باشا:

إلى الله إسماعيل وانزل بساحة أطلَّ الندى أقطارها والنواحيا
ترى الرحمة الكبرى وراء سمائها تلفُّ التقى في سيبها والمعاصيا
لدى ملك لا يمنع الظل لائذًا ولا الصفح توابًا ولا العفو راجيا

ويعربد أبو نواس ما شاءت له عربدته ويقول شعرًا ملحدًا يتناقله الناس على مر العصور ويُمعن في الفسوق والمروق متخذًا من التظرف ستارًا يحتمي فيه، ثم تطالعه السنُّ ويدرك أنه أوشك على النهاية، ويصيح صارخًا بنفسه: «يا كبير الذنب.»

وتمر أمام عينيه حياته جميعًا فيرى نفسه محاطًا بالنار لا يموت فيها ولا يحيَا، ويتبدل جلده كلما احترق له جلد، ويأخذه الهول ويلتاع، ويُدرك أي عذاب هو ملاقيه، ولا يجد لنفسه الهالعة ملاذًا، إلا عفو الله ويكمل البيت:

يا كبير الذنب عفو الله مـن ذنـبـك أكـبـر

ويتفكر ويصيح:

كُنْ مع الله يكن لك واتق الله لعلك
لا تكن إلا معدًّا للمنايا فكأنك
إن لله لسهمًا واقعًا دونك أو بك

ويصيح الزمان فإذا الصوت الذي سمعه ملحدًا كافرًا زنديقًا يعود فيملأ الدنيا إيمانًا ومناشدة للمرحمة، ودموعًا تخضب الأرض في طلب غفران السماء.

فالله غالب على أمره. والملحد من دنياه في عذاب وبيل، وهو في الأخرى لدى عالم الغيب والشهادة، وهو سبحانه وحده العالم بمصيره ومنقلبه.

المجتمع والأدب والسياسة

قَدِم إليَّ الصحفي الأديب الفلسطيني يوسف بركات موفدًا من جريدة أردنية كبرى، وكان من بين الأسئلة التي وجَّهها إليَّ، لماذا يكتب الأستاذ إحسان عبد القدوس مقالات سياسية بكمية أكبر مما يكتب في القصة أو الرواية، ألست ترى أنه يجب عليه أن يعود إلى كتابة القصة والرواية ويقلل من كتابته للمقال.

وكان جوابي على الصحفي هو أن الكاتب يستلهم نفسه فيما يكتب، ويترك قلمه على سجيَّته، فإن أرغم القلم على لون بذاته نفر منه القلم وأبى أن يجريَ في يده، وقد رأيت الموضوع جديرًا بمناقشة أكثر اتساعًا؛ فالقصة أو الرواية لا يستطيع الكاتب أن يقتسرها اقتسارًا أو يعتسفها اعتسافًا؛ فهي فكرة تَثِبُ إلى الذهن، يقذف إليه بها مجهول لا يعلم أحد إلا الله حقيقتها، يسميها بعضُ الناس وحيًا، ويسميها بعضٌ آخرون إلهامًا، وهي مسميات لمجهول يحاول بها المخلوق أن يستر جهله.

فهيهات وألف هيهات أن يكتب روائيٌّ أصيل روايةً لا تنبعث شرارتها الأولى من ذلك المجهول الذي نُطلق عليه أسماء، ولا نعرف عن سرِّه شيئًا، وكذلك الأمر في المقالة وفي القصة وفي المسرحية، فالكاتب يعتمد دائمًا على تلك الخاطرة التي تومض في ذهنه ثم تتناولها موهبتُه وقلمه وثقافته وتجربته فتصبح في الصورة التي يطالع بها الناس، فليس من حق أحد مهما يكن شأنه أن يسأل كاتبًا لماذا تكتب مقالة، ولا تكتب قصة قصيرة أو رواية أو مسرحية؛ لأن الخاطرة الأولى هي التي تحدِّد للكاتب الطريق الذي يرى أنه يصلح لمسيرة هذه الخاطرة وبلورتها.

وليس من حق أحد أن يسأل كاتبًا لماذا يكتب في السياسة ولا يكتب في الأدب، فليس هناك أدب بلا سياسة إلا أن يكون أدبًا رومانسيًّا يستنبع الخيال. فكل أدب عظيم أدب سياسي؛ لأن السياسة تتسع فتشمل كل مناحي الحياة في المجتمع، الأدب يتسع ويشمل كل

خفايا الإنسان وكل أفعاله، فإذا لم يلتقِ الأدب والسياسة ومجال كل منهما الإنسان فإنها تصبح عجيبة من العجائب التي لا يسيغها منطقٌ ولا يقبلها عقل سليم، حتى الشعراء في العصور التي كان الشعر فيها وسيلة لكسب العيش، كانوا يكتبون أدبًا سياسيًّا.

فحين يقول المتنبي في رائعته شعب بوان:

يقول بِشِعْبِ بوَّانٍ حصاني أعن هذا يُسار إلى الطِّعان
أبوكم آدمٌ سنَّ المعاصي وعلَّمكم مفارقةَ الجنان

يصبح شعره من عيون الأدب الإنساني والسياسة موضوعها الإنسان فهو يدعو بأبياته إلى السلام، ويسخر من الإنسان الذي يترك النعيم ليسعى إلى الشقاء والقتل وسفك الدماء.

وحتى حين يصف المتنبي شعب بوان وجداوله وعناقيد العنب فيه وخمائله، يصف الإنسان ومدى الجمال الذي يستطيع أن يحققه إذا أتقن عمله.

وهذا شأن من شئون السياسة.

وحين يصف سيف الدولة في الحرب ويقول:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جفن الردَى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطال كَلْمَى هزيمةً ووجهُك وضَّاح وثَغرُكَ باسِمُ

نجده سياسيًّا من الطبقة الأولى يصف شجاعة القائد الحربي، وما ينبغي أن يكون عليه من الجرأة والسكون والهدوء في عاصف الحرب ودفاعها والحرب جزء من السياسة.

وإذا تركنا المتنبي وذهبنا إلى البحتري وتذكَّرنا أبياته الرائعة في السينية الشهيرة عن إيوان كسرى التي يصف في أبيات منها الرسوم في الإيوان، ويبلغ القمة الرفيعة من تجسيد هذه الرسوم فيقول:

يغتلي فيهموا ارتيابي حتى تتقرَّاهمو يداي بلمس

فهو لا يصدق أن هذه الرسوم رسوم، فيُجري أصابعه عليها ليستوثق أنهم ليسوا أحياء، وأنهم حقًّا رسوم.

هو في هذه القصيدة يصف التاريخ ومدى الرفاهية التي كان يعيش فيها كسرى، والتاريخ مصدر رئيسي للسياسة، وتسجيل لها في وقت معًا، والبحتري سياسي حين يصف مقتل المتوكل بقصيدة من أروع قصائد الأدب العربي، والتي يقول فيها:

أكان وليُّ العهد أضمرَ غدرةً فمن عجبٍ أن وُلِّيَ العهدَ غادرُه

وهو في هذه الكلمات القلائل يضع قضية سياسية كاملة مقتضاها أنه لا يجوز أن يقوم بأمر الجماعة غادرٌ لا عهد له ولا موثق.

وإذا تركنا هذا الزمان والشواهد فيه تجلُّ عن الإحصاء، وجئنا إلى عصرنا الحديث استحال علينا أن نُلمَّ بالشعر السياسي الذي قيل فيه. وحسبنا أن نُلقيَ نظرة سريعة خاطفة على شعر أمير الشعراء، ولن ألجأ إلى الديوان، وأنا أكتفي بما أذكر في السينية التي يقول في مطلعها:

اختلاف النهار والليل يُنسي اذكُرَا لي الصِّبا وأيام أُنْسي
وسَلا مصر هل سَلا القلبُ عنها أو أَسَى جُرحَه الزمانُ المؤسِّي
كلما مرَّت الليالي عليه رقَّ والعهدُ في الليالي تُقسي
نَفَسي مِرجلٌ وقلبي شراعٌ بهما في الدموع سيرى وأرسي
واجعلي وجهك الفنار ومجرا كِ يد الثغر بين رمل ومكسِ
وطني لو شُغلت بالخُلد عنه نازعتني إليه في الخُلد نفسي

ولن أذكر شعرًا لشوقي بعد ذلك فإن الأمر يحتاج إلى كتب عديدة ليلمَّ بشعره السياسي، فإن أغلب شعره سياسي، وحسبني أن أذكر بعضًا من قصائده «كبار الحوادث في وادي النيل»، «صدى الحرب»، «انتصار الأتراك»، «بعد المنفى»، «مشروع ملنر»، «مشروع ٢٨ فبراير»، «تكليل أنقرة»، «وداع كرومر»، «نكبة دمشق»، فإذا أضفنا إلى هذه القصائد أغلب مراثي الجزء الثالث نجد أن السياسة هي المصدر الأول لإلهام شوقي.

وإذا انتقلنا إلى عزيز أباظة نجد كل رواياته سياسية؛ حتى قيس وليلى لا تخلو من السياسة، وأن نقاشه لحكم الفرد وحكم الشعب في روايته قيصر تعتبر من كنوز الفلسفة السياسية.

فإذا تركنا الشعراء وانتقلنا إلى النثر نجد أن جميع كُتَّابنا بلا استثناء تقف السياسة وراء كتاباتهم لا تتركهم، ولا هم يبتعدون عنها؛ فطه حسين، والدكتور هيكل، والعقاد،

والزيات، والمازني، والحكيم، ونجيب محفوظ، ويوسف السباعي، وعبد الرحمن الشرقاوي، وإحسان عبد القدوس، وفتحي غانم وكل مَن لم أذكرهم لا يكاد يبتعد منهم أحد عن السياسة وإن ابتعد فهو إنما يولي وجهه إلى المجتمع، والمجتمع هو مسرح السياسة وشغلها الشاغل، فليس غريبًا إذن أن يكتب إحسان مقالاتِه، وليس غريبًا أيضًا أن تتجه روايات له كثيرة إلى السياسة؛ بل إن رواياته الاجتماعية هي في ذاتها سياسة؛ لأن الرواية لا مورد لها إلا المجتمع الذي هو أساس السياسة، فالسياسة هدفها الأول أن ترتقيَ بالمجتمع أو هكذا يدَّعي الساسة على الأقل، ولا يرد على هذه القاعدة خذلان أن جعل بعض الساسة مناصبَهم شباكًا لمنافع شخصية ففي كل فئة الصالح والفاسد، ولا يعيب هذا الفئة، وإنما يعيب الفرد وحده.

سيدة اللغات

أي حرب طاحنة تلقاها اللغة العربية من الشيوعيين الملحدين والمغرضين والكافرين، وليس اللغة العربية هدفًا في ذاتها، وإنما يتقصدونها بسهامهم لأنها لغة القرآن الكريم.

والحرب ليست بنت اليوم، ولكنها قديمة قِدَم الكفر والأغراض الخبيثة، وقد خُيِّل إليهم أن نجحوا يوم ألغوا جامعة الأزهر القديم، ولم يصبح حفظُ القرآن شرطًا للانتساب إلى ساحة الأزهر الشريف ولا إلى حصن دار العلوم العتيد الشامخ.

وتحطمت اللغة على شِفاه الأساتذة وانسحقت على شفاه التلاميذ، وشبَّ جيل لا يعرف اللغة العربية، وزاط الأعداء وتهللوا وحسبوا أنهم نالوا ما كانوا إليه يطمحون، وما هي إلا دورة زمن وما أسرع ما يستدير الزمن حتى تبينوا أن اللغة على ألسنة الشباب تهشمت، ولكن الدين الإسلامي يزداد في نفوس الشباب رسوخًا وثبوتًا وتأصيلًا.

ويعود الأزهر إلى الأزهر، وتملأ ربوع مصر المعاهد الدينية تكاد تغطي قُراها جميعًا، وتعود اللغة العربية إلى الشفاه، وما هي إلا دورة زمن أخرى نرى ملامحها منذ اليوم حتى يستقيم اللسان العربي كما كان مستقيمًا. ويرى الشيوعيون الملحدون والمغرضون مراض القلوب مطالع الصباح فيهيج هائجهم، ويقول قائلهم: إن اللغة العربية ما هي إلا صدًى. وتمر أيام ولا نقرأ تعليقًا على ما قال الرجل المهلوس.

وأعجب ويتملَّكني الأسى والحزن والأسف، أهانَت لغتنا على أصحابها كل هذا الهوان، إن الأمم العريقة كلها تعتز بلغتها اعتزازَها بشرفها، فكيف إذا كانت لغتنا هي لسان كتابنا الخالد الكتاب السماوي الوحيد الذي بقيَ بلغتِه منذ نزل حتى اليوم وحتى يرث الله الأرض وما عليها، ويقول سبحانه في الآية ١٠٣ من سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ويقول

جل شأنه في الآية ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥ من سورة الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾.

ويقول تقدَّست كلماته في الآية ٩٧ من سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾.

ويقول تباركت آياته في الآية ٥٨ من سورة الدخان: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾. فإذا كان اللسان العربي صدًى، فما الصوت، وإن كان ظلًّا فما الأصل، ولماذا يحاول هؤلاء المغرضون في حمق وإصرار أن يكونوا قومًا لُدًّا يصدُّون على الدين كراهيتهم سمًّا نافعًا. أيحسبون أننا يخفى علينا ما يسعون إليه من محاولة تحطيم اللغة العربية؟ وهل يتصورون أنهم سيبلغون الأمل الذي يصوره لهم جهلهم من تحطيم الدين في نفوسنا إذا حطموا لغة هذا الدين وصوته الأصيل، وصوت الآباء والأجداد على مدى آلاف السنين؟

لقد حاولوا أن يهاجموا علماء الدين والمصابيح الهداة من شيوخ العقيدة فانهالت عليهم الأقلام، فعاجوا طريقهم إلى محاولة تحطيم اللغة العربية قائلين إنها صدًى، وعجزوا أن يقولوا لأي صوت كانت لغتنا العربية هي الصدى. أيريدون أن يقولوا إنها صدى التراث الذي يسمونه رجعية وسلفية وتحجُّرًا؟ أوَليس لكل أمة تراثها في لغتها؟ أوَليس للفرنسيِّين والإنجليز والألمان والإيطاليين واليونانيين تراثٌ لغوي؟ أهذه اللغات جميعًا أصل، ولغتنا نحن التي هي لغة كتابنا هي الصدى؟ بئس ما يدعون. لماذا نُكرمهم ويستخفون أمرنا؟ ولماذا نقدِّس حريتهم ولا يقدسون عقيدتنا وهم الملحدون، ونحن المؤمنون ونحن الأصل وهم الاستثناء، ونحن الأكثرية الكاثرة وهم الأفراد القلة أمَا يستحيون؟

وكيف لهم أن يستحيوا وهم الكافرون عقيدة وخلقًا وقولًا وقلمًا، ويتصدروا وسائل إعلامنا الرسمية، ويتبجحوا بهذا الكفر وهذا التجديف، ولا يجدوا مَن يردهم وأننا نربأ بأنفسنا أن نقول مَن يمنعهم؟ فالحرية هي أساس ديننا، فديننا الواثق من عظمة تعاليمه يرفض في كبرياء أن يُرغم أحدًا على الإيمان به؛ هكذا نزل بالحق، وهكذا دعا إليه نبيُّه ﷺ، وهكذا سيظل إلى قيام الساعة.

فالحرية في ديننا أصل ولهذا نحترم حريتكم، ولكن عليكم أنتم أيضًا أن تحترموا حريتنا، وعليكم لو كنتم على شيء ضئيل من الحياء أن تراعوا مقدساتنا، ولا تمسوا عقيدتنا بسمِّكم الناقع.

اللغة العربية هي لغة القرآن كتاب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهي اللغة الوحيدة بين لغات العالم اليوم التي بقيَ كتابها بلسانها لم يتغير منه شيء، أليس من الطبيعي أن تكون هذه اللغة هي أعظم اللغات قاطبة؟ فأي لغة في العالم الذي يعيش اليوم يُقرأ بها كتاب إلهي إلا لغتنا نحن؟ أهذه اللغة صدًى فما الصوت إذن! وبعد؛ فماذا نحن صانعون بتراثنا جميعًا، من قبل الإسلام حتى اليوم، وهل تراث الأدب العربي جميعًا إلا اللغة العربية؟ ترى؛ أيريدنا الملحدون أن نُلقيَ بهذا التراث في البحر، ونتلقَّى عنهم لغتنا وأدبنا لغة جديدة وأدبًا مستحدثًا؟

ويلٌ لهم بماذا يهرفون، إن لم يكن للأمة تراثٌ فليس لها حاضر ولا ينبت جديد من معدوم، ولكل فرع أصول فإذا قُطعت الأصول قُطعت الفروع جميعًا. إن التاريخ العربي مرتبط بالتراث الأدبي كل الارتباط، وقد كان الشعر العربي هو المؤرخ لكل أحداث العرب، ومن هذا الشعر العربي ومن النثر العربي تكوَّن تراثنا جميعًا، فهل يكون هذا التراث جميعًا صدًى؟

إننا اليوم ننزل بالبلاد العربية فإذا تحدثوا أمامنا بلغتهم الدارجة أصبح الكلام بالنسبة إلينا غريبًا لا نكاد نفهم منه حرفًا، حتى إذا نطقوا باللسان العربي استقام حديثهم وفهمنا ما يريدون. ربما كانت لغتنا العربية التي يقول عنها الكافرون صدًى فبأي لغة يكون. يا أيها الذي قال هذا لقد عدوتَ في قولك على لغة القرآن، وعدوت في قولك على لغة التراث، وعدوت في قولك على لغة الأدب العربي الحديث؛ فلن يكون الأدب أدبًا إلا أن يُكتب بلسان العرب، وعدوت في قولك على لغة التفاهم بين العرب أجمعين.

وبعد مرة أخرى فأي لغة تختارها ليكتب بها الأديب العربي أو الشاعر العربي؟ إذا كتب المصري لغته الدارجة فإن أحدًا لن يستطيع أن يفهم ما يكتب، حتى أبناء مصر؛ لأنهم تعلموا القراءة بالعربية الأصيلة، وليس باللغة الدارجة، وإذا كان المصري لن يفهم فما بالنا بأبناء العربية من الدول الأخرى. وإلى أين ينتهي بنا الأمر إذا كتب كلٌّ عربي بلغته الدارجة؛ إنهم حينئذٍ سيصبحون كالطيور العجماء تقول ولا يفهم أحد عنها شيئًا، بل سيكونون شرًّا مصيرًا وأسوأ حالًا؛ لأن الطيور تفهم عن بعضها البعض، أما الإنسان العربي فلن يفهم أحد عنه شيئًا حتى أبناء وطنه، لأنهم جميعًا تعلموا القراءة والكتابة باللغة العربية لا بالدارجة. وبهذه اللغة تكتب صحفهم وبها تُقْرأ نشرات الأخبار في الإذاعة والتليفزيون.

ما أحسب أيها الكافرون إلا أنكم تهرفون بما لا تفهمون وكبر مقتًا أن تقولوا ما لا تفهمون، فاحذروا أنفسكم؛ فهي حين تجهل يبدأ جهلها عليكم وتصبح لكم شرَّ عدو، أما نحن المؤمنين فديننا يزداد مع الأيام قوة ومنعة وانتشارًا، ولغتنا ستظل إلى ما بعد الزمان سيدة اللغات وإن رغمت منكم كلُّ الأنوف.

لغة العرب لغة الثراء

إن الإنسان لا يستطيع أن يعيش متوائمًا مع نفسه إلا إذا أحسَّ أن له في مقومات كيانه ما يعتزُّ به، وهو قادر على أن يختلق هذا الاعتزاز إن لم يجده؛ فإذا كان الأمر كذلك مع الفرد، فهو مع الأمم أكثر وضوحًا، فكل أمة في العالم تعتزُّ بأمجادها وتتغنَّى بها، وإنني أُعارض ما قرأتُه لأخي الأستاذ أنيس منصور في أحد مواقفه من رفضٍ لتغنِّي أبناء مصر بأمجاد مصر متصورًا أن هذا التغني يجعلهم في غناء عن العمل، وأنهم يكتفون بالصوت عن العمل، وهذا ليس صحيحًا في الشعب المصري، فنحن شعب يغنِّي وهو يعمل، والغناء يحث العامل على النشاط. وقديمًا كان حداء الإبل في الصحراء يخفف أعباء الطريق على المسافرين ويحث الجمال أن تحتمل المشقة، ومن هذا الحداء نبت الشعر العربي كله، وكل شعب له خصائصه التي لا يشاركه فيها أحد، والأمر المؤكد أن كسل المصريين ليس راجعًا إلى أنهم يتغنون بأمجاد مصر، وإنما هم كسالى رغم أنهم يتغنون بأمجاد مصر، فقد كان هذا التغني خليقًا بأن يدفعهم إلى العمل لا إلى النكوص عنه، فالشعب كسول رغم أنه يعرف أمجاده ويتغنَّى بها، وليس لأنه يُشيد بهذه الأمجاد.

واللغة من أهم المقومات التي تعتز بها الأمم العريقة، فأنت تجد الفرنسي وهو ينطق لغته فخورًا بهذه اللغة سعيدًا أنه ينطقها النطق الصحيح، ويكتب بها في أُلفة معها وفي حبٍّ لها. يجدد فيها دون أن يعدوَ على موسيقاها أو على جرس الجملة ووقْعها في نفس المتلقِّي لها، مستمعًا كان هذا المتلقِّي أو قارئًا.

وكذلك يفعل الإنجليز الأصلاء فهم حريصون أن ينطقوا حروف لغتهم النطقَ السليم القوي الواضح، وتلمح في وجوههم الاعتزاز بأنفسهم أنهم يحسنون نطْقَ لغتهم وهم يجددون في أساليبهم، ولكنهم لا يعتدون عليها فعل الأب الثري يقدم لابنه أحدث ما

ابتكرَته بيوت الأزياء ليراه دائمًا مشرقًا متجددًا أنيقًا، ولكنه لا يحاول بأية حال من الأحوال أن يغيِّر من معالم ولده فهو دائمًا يراه أجمل مخلوق في العالم.

ولقد قرأت منذ قريب كتابًا عن بعض رواد مؤلف الرواية الأمريكية بقلم نُقادٍ مختلفين، ويوشك النقاد أن يُجمعوا أن الكاتب الذي اختاروه لبحثهم كان يحاول أن يجد لغة أمريكية جديدة؛ لأن الشعب الأمريكي حديث التكوين ولم تتأصل له لغة خاصة به أو هو على الأقل كان كذلك حين بدأ هؤلاء الرواد ممارسة أعمالهم الفنية.

واللغة العربية لغة أمة بأكملها، وهي لغة فرضت نفسها على التاريخ لآلاف السنين، والناطقون بهذه اللغة لهم ذوقهم الخاص وهو ذوق رفيع، وليس فيه جمود فهو يحب التجديد في اللغة، ولكن لا يحب الاعتداء عليها.

واللغة العربية لها خصائصها شأن كل اللغات، وقد أحب أبناؤها هذه الخصائص حبًّا نابعًا من المشاعر قبل أن ينبع من العقل.

فلغتنا — فيما أعتقد — أعظم اللغات ثراء. وقد رأيت من الإنجليز والفرنسيين مَن بهره هذا الثراء، فاللغة الوحيدة في العالم التي يستطيع الشاعر بها أن ينظم خمسمائة بيت على وزن واحد وقافية لا تتغير هي اللغة العربية، ولو كانت اللغة الإنجليزية أو اللغة الفرنسية بهذا الثراء ما لجأ الشعراء فيهما إلى شعر المقاطع أو الشعر الحديث.

وإذا تركنا الشعر وانتقلنا إلى النثر نجد أن الأسلوب العربي يحب المترادفات؛ فهي تؤكد المعنى وتُكسب الأسلوب جمالًا ورواء وتُضفي على الأثر الأدبي أصالةً ومُكْنة وأبعادًا لا تطيق الكلمة الواحدة أن تحملها إلى نفس القارئ.

وإذا كانت اللغة العلمية لا تميل إلى هذه المترادفات فإنها حبيبة في اللغة الأدبية، وتلون الأسلوب بتلون الموضوع ثراء وقدرة من اللغة على مواجهة شتى مجالات ومختلف ميادين.

وأنا مع هذا لا أميل إلى الرأي القائل بتعريب اللغة العلمية، فإن العلم العالمي عالميٌّ بطبعه، وينبغي على المشتغلين به عندنا أن يُتقنوا اللغات الأجنبية غاية الإتقان حتى لا ينفصلوا عن العالم المتحضر في أبحاثه التي تُكلِّفهم من الأموال والآلات ما لا طاقة لنا به، والأمر الذي لا شك فيه أن العالم المتحضر ينتفع بجهود علمائنا بما يقدِّمون من بحوث في ميادين العلم، وما هذا الذي أقول من قبيل التفاخر، وإنما هو واقعٌ تؤيده الحقائق التي لا سبيل إلى نكرانها والعلم تبادل معرفة، وأن هذا الثراء الذي تتمتع به لغتُنا يُرسي في نفوسنا ثقةً مطمئنة بلغتنا، فنحن لا نخشى أن تعدوَ عليها لغة في العالم مهما يكن

شأنها، وقديمًا أخذت العربية من الفارسية والتركية ومن الفرنسية والإيطالية والإنجليزية فازدادت ثراء كما أخذت كل هذه اللغات العربية ولم تشعر بهوان فقر أو ذلة حاجة.

والأذن العربية ما زالت على رغم تطاول السنين تحب اللغة الأصيلة وتُحسن وقْعَ الكلمة المختارة الجميلة؛ ولهذا لم ينجح في أدبنا الأسلوب التلغرافي، فهو لا يصل إلى نفس القارئ في العمل الأدبي، وإنما يجعله يحس أنه يقرأ كشف حساب لا أدبًا فنيًّا ولا أسلوبًا عربيًّا.

وقد حاول بعض النقاد ممن ذهبوا إلى الغرب والْتوَى منهم اللسان وفقدوا هناك الذوق العربي أن يضعوا في الأدب العربي قاعدةً تقول إن جمال اللغة في العمل الفني يقف حائلًا بين العمل وبين مستقبِليه وخاصة إذا كان هذا العمل قصة أو رواية.

والحقيقة التي لا شك فيها أنهم هم أنفسهم وجدوا أنهم عاجزون عن كتابة اللغة الفنية الجميلة فأنشئوا من القبح قاعدة.

ولما كان الجمهور حين يقرأ يترك نفسه على سجيته ويضرب صفْحًا عن القواعد المفتعلة التي يريد أن يزيفها عليه النقاد، فإنه رفض هذه القاعدة وأصرَّ أن يقرأ أسلوبًا جميلًا، وأقبل على هذا الأسلوب ورفض غيره، ولعل الرواية الشاهقة الباذخة التي كتبها أخيرًا أستاذنا نجيب محفوظ في الأهرام تؤكد هذا المعنى؛ فإن نجيب محفوظ من أكثر الناس إحساسًا بجمهور القرَّاء وإدراكًا لذوقه، وأنت ترى أنه بلغ في هذه الرواية قمة فائقة من جمال الأسلوب.

ولقد قرأت منذ قريب بحثًا لغويًّا في بعض التركيبات اللغوية في القرآن الكريم، وقد حاول العالم الجليل أن يُبرر بعض أساليب القرآن ويتقصَّى الأسباب التي من أجلها أنزل سبحانه الآية في نظامها هذا الذي نحفظه به، وضرب مثلًا بقوله سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ وبقوله: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وبآيات أخرى كثيرة، وراح يستعرض آراء النحاة في هذا الشأن ثم يُدلي برأيه، وعندي أنه لم يكن محتاجًا إلى كل هذا الجهد؛ فإن جمال هذه الآيات مستمد من نظامها هذا والله سبحانه وتعالى الذي خلق النفوس هو الأعلم بما يصل إلى بعيد أعماقها ويبلغ منها ما لا يبلغه بيانُ بشر.

وليس أدل على أن الذوق العربي يحب لغته بكل ما فيها من جمال أسلوبي ومترادفات وتقديم وتأخير، من هذا الشعور بالسمو النوراني الذي نقرأ به القرآن الكريم أو نستمع إليه، وهو شعور يفقد جماله إذا حاولنا أن نُحلله أو نُرجعه إلى منطق، إنه الحب ولقاء النفس بما تهواه.

ومهما يحاول أعداء اللغة والعاجزون أن يهوِّنوا من شأن الجمال اللغوي ويدفعوا الناشئة إلى لغة التقارير فإن الأديب سيظل محبًّا للتعبير الموسيقي الثري الرهيف، وسيظل القارئ حريصًا أن يقرأ أدبًا فنيًّا لا نشرة أرصاد جوية.

تدريس العربية بالعربية

قرأت منذ فترة مقالًا بعنوان «يجب تدريس الطب بالعربية» بتوقيع سالم نجم أستاذ بكلية الطب، جامعة الأزهر.

وأشهد أنني أحسست عند قراءة العنوان بيد عاصرة شديدة العنف تعتصر قلبي.

أو فرغنا من تدريس العربية بالعربية أولًا حتى ننصرف إلى تدريس الطب بالعربية، أم نريد أن نجعل الخربى عندنا في شتى المجالات طيورًا عجماء لا تنطق بأي لغة من لغات الكون!

إن طلبة الطب الآن يتعلمون دروسهم باللغة الإنجليزية وهذا يجعلهم على صلة يمكن أن تكون وثيقة بتخصصهم، أنريدهم أن يدرسوا الطب بالعربية حتى تنقطع الصلة بينهم وبين هذه المصادر ويزدادوا جهلًا؟!

وأين هي اللغة العربية التي نريدهم أن يدرسوا بها؟ وهل الأستاذ أو الدكتور صاحب التوقيع يظن أن هناك لغة عربية تُدَرس في أي مكان؟ وكيف؟ ومن أين؟

ومن الذي يدرسها؟ ما تعليمه؟ ما إلمامه بها؟ لقد انتهى تدريس العربية الأصيلة منذ سمحنا بكليات الأزهر المتخصصة في اللغة وفي الشريعة أن تقبل تلامذتها من حملة الثانوية العامة دون شرط حفظ القرآن الكريم، فقتلنا بذلك اللسان العربي. ومنذ سمحنا لدار العلوم أن تقبل حملة الثانوية العامة دون شرط حفظ القرآن الكريم الذي كان أساسيًّا لقبول الطلبة في هذا الحصن الحصين للغة القرآن والتراث.

وكان الطلبة في كليات الأزهر وكلية دار العلوم يدرسون الشعر في جميع عصوره ويحفظون ألفية ابن مالك فيصبحون مرجعًا في النحو، ويدرسون العروض وبحور الشعر وكل ما يدخل عليها وما يتصل بها فكان عندنا علماء في علم اللغة. إن فات بعضهم الذوق الأدبي الرفيع لم يفُته العلم اللغوي الراسخ ...

ولقد صرخت على صفحات الأهرام ... أعيدوا الأزهر إلى الأزهر، وتفضَّل الشيخ الأكبر الدكتور بيصار رحمه الله واتصل بي وأراد أن يزورني، فعزمت عليه أن أزوره أنا وفعلت، ووعدني بأن الذي أطالب به سيتحقق في مدى عامين، ومرت خمسة أعوام ولم يتحقق شيء، وكنت قد كففت عن مواصلة المطالبة بعودة الأزهر إلى الأزهر مكتفيًا بهذا الوعد من إمامنا الأكبر، ولكن الأزهر أفلح في إسكاتي فقط، وهذا أمر هين لم يكن يحتاج إلى كبير جهد، ولم يُفلح الأزهر أن يعود إلى الأزهر حتى اليوم.

وما النتيجة؟ النتيجة هذا الخطاب الذي قرأته في بريد الأهرام في يوم الخميس ٨ ديسمبر والذي كتبه طالب بالثانوية العامة عن جميع زملائه طلبة الصف الثالث علمي وأدبي بمدرسة لم تذكرها الأهرام، ولست أدري لماذا، أو ربما كنت أدري. وقد نشرت الأهرام الخطاب بعنوان رسالة بليغة، وعلق عليه المحرر بصرخة ألمٍ وذعر، وقد هالته الأخطاء التي جاءت في الخطاب. وقد فكرت أن أُعيد نشر الخطاب، ولكنني رددتُ نفسي أو ردَّها عن ذلك شعورٌ بالغثاء والقرف وأنا أقرأ، فكيف أتمالك أن أنقل وكيف يستطيع القلم أن يخطَّ هذه الكارثة على ورق. لا تخف لن أنقل الخطاب إليك؛ فإن كنت قرأته مرة فحسبك مرة، ولن أزيدَك ألمًا بأن أجعلك تقرؤه مرتين، وإن كنت لم تقرأه فقد أنجاك الله ولا داعي لأن أصرف إليك من البلاء ما صرفه الله عنك سبحانه وتعالى.

ولكن حسبك أن تعلم أن الخطاب يكاد يخلو تمامًا من كلمة صحيحة في الإملاء، ولا أقول النحو وحسبك وحسبنا الله إنه نعم الوكيل. والذي كتب الخطاب هو الفصيح بين إخوانه، وأخواته هم طلبة الثانوية العامة الذين يختمون اليوم دراساتهم العامة؛ أي أنهم انتهوا فعلًا أو ينتهون هذا العام من دراسة اللغة العربية جميعًا، والذي لا شك فيه أنهم أتموا دراسة الإملاء والنحو.

هؤلاء هم المدرسون في غد والمحامون والأطباء والمهندسون ولسان مصر في المجتمعات العربية والدولية. وإذا كان هذا لساننا فنحن إذن بكم لا نبين ولا أمل لنا أن نقول. وويل لغدنا من غدنا وويل للغتنا من الناطقين بها.

فأي لغة عربية تلك التي نريد أن يدرس بها طلبة الطب؟ وأين هي؟ وعلى أي لسان تقال وبأي قلم تُكتب؟

كان الأزهر ودار العلوم هما حصن هذه اللغة، ورئيس جامعة الأزهر شيخ جليل عالم باللغة علمًا أصيلًا، وعميد دار العلوم واحد من أدباء عصره شاعرًا وأستاذًا وعالمًا بأسرار اللغة وخوافيها ...

ولكن ماذا يستطيع الرجلان أن يصنعا؟

إني واثق أن الدكتور أحمد هيكل عميد دار العلوم يبذل من الجهد أقصاه ليقوم اللسان العربي على شفاه طلبته، ولكن كلنا يعلم أن الاتصال باللغة يكون في السنوات الخضر من حياتنا، تلك السنوات التي تعلم فيها الدكتور هيكل القرآن الكريم في الكُتَّاب، فاستقام لسانه واستقامت له اللغة وأحبها وأحبته فماذا هو صانع مع طلبة يلتحقون بكليته المسئولة عن تخريج أساتذة اللغة، واللغة عليهم غريبة، ولولا المجموع — لعن الله اليوم الذي عرفناه فيه — ما التحق هؤلاء بكلية دار العلوم، فهم يدرسون اللغة العربية لأنهم لا يملكون أن يدرسوا شيئًا آخر.

واللغة العربية — شأن كل لغة — كائنٌ حي ذو مشاعر وإحساس؛ فهي لا تحب مَن لا يعشقها ولا تفتح نوافذها وتكشف أسرارها إلا لمن تعلَّم أنه سادنٌ في محرابها متعلق بأستارها واهب نفسه لها ولجمالها وإبداعها وفنون سحرها. أما الشيخ الدكتور فرهود فالأمر بالنسبة إليه أكثر صعوبة، وكيف له أن يواجه هذه الكليات التي تدرس الشريعة واللغة والطلبة قادمون إليه لا يكادون يعرفون أن اللغة العربية اسمها العربية. كان الله في عونه وعون الأساتذة الذين يقومون بالتدريس في هذه الكليات.

ولقد نسمع قائلًا يقول إن الصحابة لم يكونوا كلهم حافظين للقرآن الكريم.

ولكن لغة الصحابة كانت هي العربية، ولم تكن قد عدت عليها تلك العجمة التي تراكمت على اللسان العربي نتيجة اتصاله بالفرس والروم والترك ونتيجة مرور ألف وأربعمائة عام على نزول القرآن الكريم.

وحين ننادي اليوم بحفظ القرآن الكريم وعودة الأزهر إلى الأزهر لا نطالب بذلك خوفًا على القرآن الكريم، جل أن يخاف عليه أحد، وقد جاء فيه وعدُ قيومِ السموات والأرض: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقد فعل والمطابع اليوم تطبع أعدادًا من المصاحف لا تطبعها من أي كتاب آخر، ولكننا نطالب بحفظ القرآن الكريم لنحافظ على لغته ولغتنا التي بغيرها لن يستطيع عربيٌّ أن يكلِّم عربيًّا.

ونطالب بحفظه لنجد في غد هداة ودعاة يعرفون كيف يعلِّمون الأجيال دينهم ولغتهم.

وما أجهل أجيال اليوم بدينهم؛ هذا الجهل الذي نشهده من المتطرفين وهم يُعرضون على الرأي العام في شاشات التليفزيون، وما أجهل أجيال اليوم بلغتهم هذا الجهل الذي لا يحتاج إلى دليل أقوى من ذلك الخطاب الذي نشرته الأهرام يوم الخميس ٨ ديسمبر فملأت به نفوسنا حسرة وألمًا ... ومرة ثانية وثالثة وألفًا ... حسبنا الله ونعم الوكيل.

الكاتب حق

قد يحسب بعض الشباب من الكُتَّاب أن الكاتب ثورة دائمة، ورفض مطلق وتلك نظرة سطحية فجة، أن الكاتب أولًا وأخيرًا كلمة حق، أنه صدق مع نفسه ليكون عند الناس صدقًا، وإن لم يكن الكاتب عند الناس ثقة وحقًّا فهو لا شيء وليس يُجدي أن يكون له مصفقون وهتافون ودعاة بين الصحفيِّين، فكل هؤلاء لا يستطيعون أن يجعلوا القراء يحترمون الكاتب في دخيلة أنفسهم.

ليس الكاتب مجرد ضجة في الحياة، وليس هو طلقات مدافع في الهواء فذلك شأن أصحاب السرك والبهلوانات وليس شأن الكاتب. إن الكاتب لا عمل له في الحياة إلا أن يكون موصول الوشائج بالجماهير يخاطب عقولهم، ويهز عواطفهم ويَصِل إلى الخوافي البعيدة عن نفوسهم، ولن يستطيع كاتبٌ أن يبلغ من هذا شيئًا إذا لم يصل إلى مكانة شريفة عند القارئ، فإن القارئ لن يفتح عقله وقلبه وعواطفه إلا لمن يثق به ويقدِّر مكانته. قد يختلف معه الرأي ولكنه يحترمه.

وما دام يحترمه فإنه سيناقش رأيه ويواجه كل حجة، وكل رأي برأي؛ فإما أن يقتنع بما يقول الكاتب أو يرفضه، ولكنه على الحالين يوقر الكاتب وينزله من نفسه منزلة التقدير والإكبار والإجلال.

والقارئ الذي يستحق لقب قارئ لا يأبه بحفلات الزفاف التي تقام لأي كاتب، وليس يعني بالمواكب التي يصطنعها أصدقاء كاتب ما لأعماله، ولا يأبه القارئ الجدير بهذا اللقب بطلقات النار التي يطلقها الصغار في زفة الصحافة مصوبة إلى الهواء إنما القارئ يعني فقط بما أنتجه الكاتب من عمل، مقالة كان هذا العمل أو رواية أو قصة أو كتابًا أو كان العمل قصيدة أو ديوانًا.

قد تصلح هذه المواكب أن تجعل الكاتب شهيرًا، ولكن إن كانت الشهرة وحدها هي ما يسعى إليها الكاتب فهذا أتفه من أن يكون كاتبًا وأحقر من أن يحمل قلمًا، إنما الشهرة التي يصيبها الكاتب أثرٌ جانبي يتم له دون أن يسعى إليه، فليس الكاتب مهرجًا يوزع إعلانات الحفلات ولا هو طبالًا يضرب طبوله ليعلوَ منها الصوت ثم لا تقول شيئًا.

إنما الكاتب رأيٌ، والرأي منطق والمنطق ثقافة، والثقافة جهد وبحث وعناء وإن حاول الكاتب أن يستغنيَ عن هذا جميعًا بادعاء الثورة على مجتمعه، أو بالتظاهر برفض كل ما هو مستقر من قِيَم جماعته وأمته. فإنه قد يشتهر أمره بين الناس حينًا ثم ما يلبث أن يخبوَ منه الضوء فما هي إلا عشية وضحاها حتى يصبح بين الناس أضحوكة، أو يصبح على الأقل نسيًا منسيًّا، وإن دام حوله التهليل وإن علَت باسمه الطنطنة فإنه سيظل عند الناس غير ذي مكانة ولا احترام ولا توقير.

وقد تسألني ما حديثك هذا عن القارئ الجدير بهذا اللقب، ومن حقك أن تسأل، فقد يظن بعض الناس أن كلَّ مَن يقرأ قارئ، وتلك أغلوطة ما أبعدها عن الصواب.

إن القارئ هو الذي يقرأ للكاتب وليس القارئ مَن يكتفي بأن يقرأ عن الكاتب، وإنه كثيرًا ما تكتب الصحف أخبار الكُتَّاب وأنباء ما يشهدون من ندوات أو ما يذيعون من مقابلات بالإذاعة والتليفزيون. وكثيرًا ما تتناول الصحف والمجلات أنباء طريفة عن بعض الكتَّاب قد تكون مسلاة للقرَّاء، أو قد تروي الصحف والمجلات أخبارًا عما يعد للكاتب من روايات في السينما أو الإذاعة أو التليفزيون أو المسرح، ولكن الكاتب ليس هذه الأخبار، وإنما الكاتب هو ما يكتب وما يقول لا ما يُكتب عنه من أخبار وما يقال عن أعماله من أنباء.

ولا بأس بالقارئ أن يطالع هذه الأنباء، ولكنه إن لم يقرأ ما كتبه لكاتب من إنتاج أدبي فهو ليس قارئًا، وإنما هو واحد من الناس الذين يريدون أن يتسلَّوا بالحديث عن أنباء الكُتَّاب.

القارئ الجدير بلقبه هو هذا الذي يتابع الكاتب فيما يكتب، وليس فيما يحيَا من حياته الخاصة، وهؤلاء القراء نادرون.

أذكر أنني كتبت بجريدة الأخبار مقالةً نقدية عن عمل لأستاذنا نجيب محفوظ، وفي يوم ظهور المقالة وكان ذلك منذ عشرين عامًا ونيف — ظهر بالصفحة الأخيرة من الأهرام خبرٌ عني أنني دعوت ممثلة كانت مرشحة لدور في فيلم عن إحدى رواياتي إلى بلدتي بالشرقية، وأنني قدمت لها الفطير المشلتت. وأذكر في ذلك أنني لم ألقَ أحدًا من الناس

إلا حدثني عن خبر دعوتي للممثلة إلى بلدتي غزالة، ولم ألقَ أحدًا حدثني عن المقالة التي نشرتها بصحيفة الأخبار. كل هؤلاء الذين لقيتهم في هذا اليوم لا أعتبرهم قرَّاء، إنما هم مطالعون يبحثون عن الأنباء المسلية ليملئوا فراغ يومهم فهم يتسلَّون بنا ولا يقرءوننا.

وأذكر أنني دُعيت إلى ندوة عن رواية لي بقصر الثقافة بالإسكندرية لمناقشة رواية لي كانت قد عُرضت بالتليفزيون. ولكن الندوة كانت لمناقشة الكتاب طبعًا لا العرض التليفزيوني، فأنا مسئول عن كتابي الذي أوقع عليه ولست مسئولًا عن أي عمل ينتج عن رواية لي سواء كان ذلك في السينما أو التليفزيون أو المسرح أو الإذاعة.

وقبل الندوة جلست بحجرة رئيس قصر الثقافة ليقدم لي فنجان قهوة، وبينما أنا في هذه الحجرة قَدِمَ إليَّ أستاذ ذو وقار ووجاهة وقدَّم نفسه لي، فإذا هو أستاذ أدب عربي بإحدى الجامعات فرحبت به واستقبلته بما يخلق بأستاذ جامعي، وجلس الدكتور إلى جانبي وراح يمتدح روايتي موضوع الندوة، ويبدي إعجابه الشديد بها. وفي سؤال عابر لم أكن أشك في إجابته بل ربما دعاني إلى طرحه ذلك الارتباك الذي أشعر به دائمًا إذا طالعني المديح مواجهة. فأنا حينئذٍ لا أجد شيئًا أقوله إلا غمغمة ليس لها معنى وهمهمة لا تكاد تبين، وجمعت كلمات سؤالي بصعوبة بالغة وقلت للدكتور: طبعًا حضرتك تتحدث عن الكتاب، وصعقت وأنا أسمعه يقول في بساطة بلهاء.

– لا والله؛ فأنا لم أقرأ الكتاب، وإنما شاهدته بالتليفزيون، وطبعًا لم أُكمل الحديث معه والتفت إلى الآخرين الجالسين معنا، ورُحت أتحدث إليهم وكأن الدكتور غير موجود. إنه ليس بقارئ فكيف يكون أستاذًا.

والكاتب لا يعني بهؤلاء الذين يقرءون عنه، وإنما يهتم اهتمامًا بالغًا بمن يقرءون له.

والكاتب أيضًا ليس يعني بمن يسبُّه لمجرد السباب أو يمتدحه لمجرد المديح، وإنما يعني كلَّ العناية بمن يعارضه رأيًا برأي وحجة بحجة، ويعني كل العناية ويحمد غاية الحمد أولئك الذين يمتدحونه عن بينة ووعي مقدِّرين فنِّية العرض عنده، وعُمْق المعاني التي يعبر عنها، والأبعاد التي تنبعث من أعماله.

ولا يستطيع كاتب أن يُرضيَ الناس جميعًا. وأذكر في عام ١٩٥٨ أن ناقدًا تناول عملًا لي بنقدٍ قاسٍ عنيف في إحدى المجلات العربية، ووجدت نفسي وأنا أقرأ المقال أثور ثورة عارمة وأُعدُّ نفسي للرد عليه. وفي غضبتي طلبت أستاذنا نجيب محفوظ لأُشهدَه على هذا النقد الجائر الذي كتبه ذلك الناقد، فإذا نجيب يشعر بالثورة التي تعتمل بنفسي

ويقول في هدوء رزين: الله ... ماذا جرى يا فلان. وهل تنتظر أن يرضى عنك كل الناس، إننا إذا أرضينا نصف قُرَّائنا نكون قد حققنا نجاحًا ساحقًا.

ونزلت كلماتُه على ثورتي ماءً قراحًا، ووجدتُ نفسي سعيدًا بعد غضب، هادئًا بعد فورة. إذا كان نجيب محفوظ يقول هذا فإنه يصبح حتمًا عليَّ من الحتم ألَّا أغضبَ لنقد أبدًا.

ومنذ ذلك الحين لم أردَّ على ناقد لعمل لي قط، وما أحسب أنني سأرد على ناقد لي أبدًا، وفلسفت هذا الموقف لنفسي بأنني إذا كنت اليوم حيًّا وأستطيع أن أناقش ناقدًا فماذا أنا صانع في غد حين أكون بجوار رب كريم وينقد ناقد كتابًا لي. واقتنعت أيضًا أنه ما دام الناقد قد كوَّن رأيه عن كتابي على النحو الذي نشر به نقده فذلك شأنه، فإنه إذا كان صادقًا مع نفسه فهو يعبِّر عن موقع عملي في نفسه تعبيرًا أمينًا. أما إذا لم يكن صادقًا مع نفسه فما حاجتي إليه وما حيلتي فيه.

أما الذي يسبُّني دون نقد فإنني أجد نفسي كإنسان مسوقًا إلى الرد عليه لأبيِّن له على الأقل أن السباب أيسر الأمور، وإنه إذا كان يُبيح هذا لنفسه فعليه أن يتحمل ما أبيحه أنا أيضًا لنفسي.

أما إذا كان السباب من نكرات يحاولون به أن يتواثبوا على أكتافي فإنني أحرمهم من تحقيق أملهم ولا أذكرهم وكأنهم ما قالوا وما كانوا.

والكاتب صاحب رأي ولكل صاحب رأي معارض. وكم اختلفت مع أبي الروحي وزعيم كُتَّاب العرب توفيق الحكيم، وكم احتدم بيننا النقاش، ولكن هذا الخلاف لم يستطع يومًا أن يمسَّ شعوري نحوه بالبنوة وشعوره نحوي بالأبوة؛ وهي بنوة وأبوة لا تقف عند المشاعر بل وتعدوها إلى أنه يعتبرني المسئول الأول عن كل ما يمكن أن يطلبه أب من ابنه في مألوف حياة الأبناء والآباء.

وكم اختلفت مع أخي الأعز الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوي، وقد كتب كلٌّ منَّا رأيه المعارض للآخر فما ندَّت مني كلمة تمس احترامي له وإكباري، وما خط قلمه في معارضتي إلا كل حب وعفة.

وأذكر أنني عارضتُ رأيًا له في مجلس الشورى معارضةً عنيفة ثم خرجنا معًا من الجلسة بعد انتهائها وجلسنا في استراحة الأعضاء نتبادل الحديث ونرتشف القهوة، ويمر بنا إخواننا الكرام أعضاء المجلس فيُصيبهم الدهشة والعجب، كيف عارض كلٌّ منا الآخر داخل الجلسة ثم خرجنا وكان كلٌّ منا يؤيد الآخر. ولم يدهش الأعضاء بعد ذلك حين

رأوه ورأوني يؤيد كلٌّ منا الآخر داخل الجلسة في كثير من الآراء. فإن المعارضة بيننا هي في ذاتها عارضة وليست أصيلة، وهي أيضًا لا تجرؤ أن تمسَّ تلك الصلة الحميمة الحبيبة العميقة التي تربط الصديقَين الأخوَين منه ومني.

الوحيد الذي لم أختلف معه قط هو أستاذنا نجيب محفوظ على طول سنوات الصداقة الحميمة بيننا، وهي صداقة تزيد عن صلات كثير من الأخوة وقد زادت — أدامها الله — عن أربعين عامًا. والعجيب أن توافقنا في أعمال أدبية كثيرة صدرت له ولي في أوقات متزامنة.

وبعد فأنا لا أعرف أنني — والحمد لله — لا أحمل عداوة لأحد من الكُتَّاب، ومهما تختلف بنا الآراء، فإنني أَكِنُّ له الاحترام ما دام كاتبًا حقًّا وليس مزيفًا، وأعتقد أو ربما يحلو لي أن أعتقد أنه هو الآخر يحتفظ لي بنفس هذه المشاعر.

معذرة ... شكسبير

فالأمر الذي لا شك فيه أنك علمت ما صنعناه بك. فأنت الآن روح بلا جسد، وأغلب الأمر أن روحك تتابع مسرحياتك حينما تمثل هذه المسرحيات، يعينك على ذلك أنك تخلصت من قواعد الجسوم، وابتعدت عن دنيا الناس، وأنت رأيت ما صنعه بك التليفزيون المصري منذ بضعة أيام، ولكن دعْني أروي للناس ما صنعه عباقرة المسرح بنا نحن المشاهدين العُزَّل الذين لا نملك لسيطرتهم التليفزيونية دفعًا أو دفاعًا، وإنما ينفردون بنا ويصبُّون علينا جام عبقريتهم في ظلم لا يعرف الرحمة وفي قسوة لا هوادة فيها ولا شفقة.

أعلنوا يا شكسبير أنهم سيمثلون رواية من خوالدك في التليفزيون فانتعشت بنا الآمال وأعددنا أنفسنا لمشاهدة شكسبير.

وجاء الموعد، وبدأ عرض المسرحية ويل للخالدين. ما هذا الذي يصنعونه بشكسبير، ولأي فئة من الناس يقدمون أعماله، ومَن هؤلاء الذين سيشاهدون شكسبير باللغة العامية ويحمدون ما يشاهدون، أيُّ استخفاف هذا الذي يأخذون به الأعمال الجادة الرفيعة؟ إذا كنا لا نريد أن نحترم شكسبير أفلا نحترم لغتنا العربية على الأقل. ولكن لا، ما إلى إهانة شكسبير قصدوا، وإنما المقصود بالإهانة هي اللغة العربية ذاتها، فهكذا استقر بهم الرأي، أن التقدمية والحضارة والسمو ومواكبة الزمن لا تكون إلا بتحطيم اللغة العربية، واصطناع العامية، وقد استطاعوا بصوتهم الجهير النكير أن يجذبوا إلى ميدانهم العامي كاتبًا أكنُّ له كلَّ احترام وتقدير وهو الدكتور سمير سرحان الذي اختار العامية ليترجم بها شكسبير وهو شكسبير.

والدكتور سمير سرحان من القلة النادرين الذين يعرفون قدر شكسبير كل المعرفة، والذين يُجيدون لغتهم العربية كل الإجادة، ولست أدري ما الذي حدَا به أن يختار العامية ليترجم بها شكسبير، ولست أدري أيضًا لماذا قَبِل التليفزيون إذاعتَها. أغلب الظن أن

الدكتور سمير أراد أن يجدد شكسبير، وأن التليفزيون المصري أراد أن يُكرم العامية ويبالغ في تكريمها؛ لأنه يرى العربية غير جديرة بالتكريم؛ لأنها أصبحت شيئًا قديمًا باليًا لا يصلح لغة للحديث.

وربما خشيَ التليفزيون المصري أن يرميَه الجمهور بالثقافة فينصرف عنه ويبتعد عن مشاهدته، كأن التليفزيون قد أصبح فجأة شركة إنتاج سينمائية تخشى ألَّا يشتريَ المشاهدون التذاكر، وتصبح الخسارة خسارة مادية، وكأني بالتليفزيون قد ضحَّى بالمكسب الثقافي ليضمن الربح المالي. وتلك إذن عجيبة، فالذي أعرفه أن هذه المسرحيات تُباع إلى الدول العربية، والذي لا شك فيه أن اللغة العربية أيسر عند هذه الدول من اللغة المحلية المصرية. والذي لا شك فيه أيضًا أن الشعب المصري يفهم العربية ويقرأ بها صحفه، ويسمع بها نشرات أخباره في التليفزيون والإذاعة على السواء.

ولكن اللغة العربية مع ذلك أصبحت غريبة في مصر منذ هجر الأزهر الشريف بناء الأزهر الشريف، ومنذ أصبحت دار العلوم وقد انهار الأساس الأعظم الذي كانت تقوم عليه من شرط حفظ القرآن الكريم للانتساب إليها.

منذ هذا اليوم الأغبر الكئيب في حياة مصر أصبحت اللغة العربية بلا دار تحتمي بها وبغير موئل تأوي إليه. وجاء التليفزيون بمذيعاته اللكناوات فازدادت اللغة العربية تشردًا ثم أمعن التليفزيون فعرض الروايات المترجمة من اللغات الأجنبية باللغة العامية ثم ازداد اليوم إمعانًا فعرض شكسبير وهو شكسبير باللغة العامية.

أتعجبُ بعد ذلك أن نجد شبابًا لا يقوم لسانه، ولا يعرف لغته. ولغته هذه هي قوام دينه وأساس إيمانه وعلى صرحها الشامخ وفي قمته يقف القرآن الكريم محفوظًا مقدسًا بأمر من العلي القدير، مجهول الأصول تختلط معانيه وأوامره ونواهيه عند الشباب.

ويريد الشباب أن يكون مؤمنًا، ولكنه يجهل الطريق إلى الإيمان؛ لأن صلته باللغة التي يفهم بها قرآنه مقطعة الأسباب، ممزقة الروابط، منفصلة الأوشاج، وتُبلى مصر بالطامعين في الدنيا البائعين لآخرتهم بثمن بخس من رغبة في سلطان فيحرفون كلام الله عن مواضعه، ويتخذون منه وسيلة إلى عقول الشباب البريء الساذج، ويُشعلون الحريق، ويؤججون النار، ويعينهم جهل الشباب بلغتهم وقرآنهم ودينهم، فإذا مصر المسلمة المؤمنة حصن الأزهر وسماء الآلاف من المآذن تصطلي من اجتماع الأغراض الدنيوية الرخيصة بجهل الشباب الفادح.

وإذا كنا نبكي دمًا في مصر، فإننا نبكي دمًا وروحًا وقلبًا لتفشِّي الأمية الدينية عند الشباب، وتفشي الضمير الميت وبيع الآخرة بالدنيا عن المغرضين من مثيري الفتن ومشعلي الحرائق.

والإيمان أعز ما يملك الإنسان في حياته على شاطئ منه كريم يرسو المضطرب من حياتنا، وعند مرفأ منه مضيء يُشرق ما اعتراه اليأس من مالنا، وعند حصن منه منيع تلوذ نفوسنا من نزعات الشيطان، ومن إغراءات الحياة، ومن اللذة الهدامة، ومن المال الحرام، ومن الكذب والنفاق والسحت والرشوة وبيع الضمير.

ولكن المغرضين ممن يدعون بالدين علمًا وما هم بذاك جعلوا من دينهم ساحة يصحبون فيها الشيطان، ويُقبلون فيها على إغراءات الحياة من لذة ومن كذب ومن نفاق ومن سحت ومن رِشًا ومن ضمير مباع، ولكن الله أكبر، والعزة له وحده ولا غالب إلا هو سبحانه.

إن في مصر مشايخَ أجلاء قادرين دائمًا أن يجعلوا الصحيح وأن ينفخوا في الباطل فإذا هو زبد جفاء، ويظل الباطل كما كان وكما سيبقى زهوقًا هشيمًا محطمًا، وقد قال المصابيح الهداة كلمتهم وهم العلماء الأئمة ارتضيناهم للفُتيا في شئون ديننا وأخذنا عنهم علمنا بكريم كتابنا وبالصحيح الثابت من سنة رسولنا ﷺ.

وما دعَا كتابنا يومًا إلى الفتنة؛ بل جعلها أشد من القتل، وعلى هَدْي هذه السنن سار سيد البشرية وخاتم الأنبياء ﷺ، أم جعل المغرضون من أنفسهم أنبياء جددًا. إذن فقد باءوا بسخط من الله وبغضب من رسوله وممن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين. إن الأمر جدٌّ لا هزلَ فيه، فما لي إذن أرى وفي التليفزيون أيضًا شيخًا يختلق قوانين ما أنزل الله بها من سلطان، ويجعل من اللمم كفرًا، أي ردة؛ أي أنه يريد أن يقيمَ حدَّ المرتد على مخطئ أو مخطئة في رأيه دون أن يثبت خطؤها في عرف جمهور الفقهاء ولا كبار أئمتهم.

إن إنشاء الجريمة لا يكون إلا بنصٍّ صريح من القرآن ذاته، ولا يجوز فيها قياس ولا استصحاب ولا استحسان، ولا اجتهاد، فإنه لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص.

إذن فهم لم يكتفوا أن يجعلوا من أنفسهم أنبياء جددًا، ويريدون أن يصبحوا آلهة أيضًا، أم تراهم لم يقرءوا ما جاء في معنى الحديث النبوي الشريف: مَن حلَّل حرامًا أو حرَّم حلالًا فليتبوأ مكانه من النار. أو كما قال. فإن لم يكونوا قرءوه أو عرفوه ففيم تصدِّيهم للفتيا، وفيم جرأتهم على حدود الله، وكيف تبلغ بهم القحة أن يُنشئوا جرائم تترتب عليها حدود منها إعدام النفس التي حرَّم الله إيذاءَها إلا بالحق.

اللهم يا ذا الجلال نشهد أنه لا إله إلا أنت، ونشهد أنك قلت تعاليت وتعالى قولك: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ من الآية ٣ سورة المائدة.

اللهم يا ذا العزة أنت وحدك القهار فوق عبادك، وأنت القادر على الفاسقين من عبادك، وأنت وحدك تعلم ما لا نعلم وما لا أحد يعلم، سبحانك إنك أنت العزيز القدير.

لو .. حرف امتناع الوجود

أنتمي إلى ثورة ١٩ بالمولد؛ فأبي أحدُ رجالها، وما أنا بحاجة إلى ذكْر دوره فيها، فقد أغناني عن ذلك كبير مؤرخي العصر عبد الرحمن الرافعي، كما أغناني الأستاذ عبد الحميد جودة السحار بما أورده في مذكراته عن هذه الفترة، وكذلك فعل كلُّ مَن كتب عن هذه الثورة الخالدة في تاريخ مصر.

وقد عرفت من أبي تاريخَ هذه الثورة منذ بدأَت حتى انتهت بتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ذلك التصريح الخالد في تاريخ مصر الذي قال عنه شوقي:

إذا التصريحُ كان براحَ كفرٍ فلِمْ جُنَّ الرجالُ به غراما
وكيف يكون في أيدٍ حلالًا وفي أخرى من الأيدي حراما
وما أدري غداةَ سقيتموه أَتِرياقًا سُقيتم أم سِماما

وهذا الكلام كان موجهًا يومذاك إلى حزب الوفد الذي رفض التصريح، ثم انتفع بآثاره بصورة لم تتحقق للحزب الذي أتى بالتصريح، والذي اشترك في وضع الدستور، وإذا نحن في هذا الحديث لما انتهينا، وما إلى هذه الأحداث نظرت وأنا أكتب مقالي هذا، وإنما هو استطراد أغراني به الحديث عن الثورة الخالدة.

وكنت عرفت فيما عرفت من أبي أن الثورة سنة ١٩١٩ بدأت في كلية الحقوق بعد أن كان الشعب المصري كله متحفزًا لها منتظرًا لقيامها في أية لحظة، فكانت مصر يوم ذلك شعلةً معبأة تنتظر الشرارة وتتوقعها من أي مصدر حتى انقدحت الشرارة من كلية الحقوق.

وعرفت بعد ذلك الرئيس السابق المرحوم خالد الذكر إبراهيم عبد الهادي باشا، وكنت دائم الزيارة له لفترة تقارب العشرين عامًا، وعرفت منه أن طلبة الحقوق نظموا مظاهرة تجمعت في فناء الكلية تهتف هتافات معادية للاحتلال الذي نفى سعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقي وحمد الباسل، ووقف ناظر الحقوق الإنجليزي يخطب في الطلبة ويأمرهم بأن يعودوا للدراسة التي جاءوا ليتلقوها، رافضًا منهم أن يعملوا بالسياسة، وصَعِد إبراهيم عبد الهادي من بين الطلبة ووقف إلى جانب الناظر وقال له: «إننا جئنا هنا لنتعلم الحقوق، ولا سبيل لنا أن نتعلم الحقوق من قوم نفوا آباءَنا عن أرض الوطن، وليس من المعقول أن نعرف الحقوق من قوم اغتصبوا حقوق بلادنا.» ثم هتف «تحيا الثورة» وبدأت ثورة ١٩١٩.

وقرأت مثل هذا أيضًا دون ذكر أسماء في كتاب الرافعي، وقرأته أيضًا بلا أسماء في الروايات التي أرَّخت للثورة مثل رواية أستاذنا نجيب محفوظ «بين القصرين»، وكتبته أنا في روايتي «الضباب»، ثم كتبته بصورة أخرى في روايتي «طائر في العنق»، وأيضًا لم أذكر أسماء لأن الرواية تنقل آثار الأحداث، وليس من شأنها أن تؤرخ للأحداث، ولكنها مع ذلك إذا تعرضت للتاريخ تحتم عليها ألَّا تشوه معالمه، وألَّا تطمس سماته الكبرى.

وكم أنا سعيد أن يُنشر هذا الذي أكتبه في نفس اليوم الذي اختاره الخالدون الثلاثة: سعد، وعبد العزيز فهمي، وعلي شعراوي ليذهبوا إلى المندوب البريطاني ويطالبوا بإنهاء الاحتلال والجلاء عن بلادهم بادئين بذلك أعظم ثورة شعبية عرفها التاريخ الحديث.

وكم أنا أسيفٌ حزين أن أذكر السبب الذي جعلني أكتب هذا الذي أكتب، فقد شاء قدري أن أشاهد في التليفزيون المصري رواية عن سلطانة الطرب «منيرة المهدية» فشهدت عجبًا.

رأيت تاريخ مصر تصنعه المغنيات والراقصات، ورأيت السينما المصرية تسجل كفاح مصر بزعامة أولئك المغنيات والراقصات، فقد شهدنا ألمظ وكأنها مصطفى كامل، وعبده الحامولي وكأنه محمد فريد، وشفيقة القبطية وكأنها سينوت حنا، وها نحن أولاء نشاهد منيرة المهدية وكأنها سعد زغلول، وزوج ابنتها إبراهيم عبد العال وكأنه إبراهيم عبد الهادي.

وتلك كارثة ولكن انتظر فإن الداهية الكبرى لم أذكرها بعد، لقد فوجئت أن كل الذي عرفته من أبي ومن إبراهيم عبد الهادي ومن عبد الرحمن الرافعي، ومن السحار ومن نجيب محفوظ، ومن كل الذين كتبوا عن ثورة ١٩١٩ وكل الذين عرفتهم من رجالات هذه الثورة مثل النقراشي باشا، وأحمد ماهر باشا، لم يكن تاريخًا وإنما كان تأليفًا.

فالثورة لم تنقدح شرارتها من كلية الحقوق كما روى أعلامها، وكما ذكر التاريخ وكما قالت الحِقَب.

وإنما الحقيقة كما جاءت في الفيلم أن الثورة بدأت من كباريه منيرة المهدية بين كاسات الخمر، وضرب الدفوف، وعزف الأوتار، و«هز الوسط»، ودق الصاجات.

وحسب تاريخ مصر الله؛ إنه سبحانه وتعالى نعم الوكيل.

ولكن يبقى شيء في هذا الفيلم التاريخي الجليل، فهو مثل كل المصائب ليس يخلو من ظاهرة تستحق التسجيل، فقد صور الفيلم عودة منيرة المهدية إلى الغناء في أخريات حياتها بعد أن يَبِس صوتُها، وجفَّ ماؤها وتقلَّصت عن نغماتها الطلاوة، وانحسر انطلاقها إلى خفوت ووهن.

والجمهور وحشٌ كاسر حين يتصدَّى للحكم على فنٍّ من الفنون، فهو لا يذكر للفنان الذي يعرض عليه فنَّه ماضيه ولا سابقته في الميدان، وليس يرعى له تقدُّم سن، وليس ينظر إلى السنوات الثقال التي يحملها المشتغل في الميدان العام مهما يكن نوع هذا الميدان؛ فنًّا كان أو سياسة أو ثقافة.

وإنما هو يُعنَى فقط بما يُعرض عليه.

وقد وقعت منيرة المهدية في خطأ فادح حين حاولت أن ترغم الأيام على الشباب، في حين الأيام عجوز مثقلة بالشيخوخة.

ولكن العجيب أن منيرة المهدية لم تكن أول مَن حاول هذه المحاولة مع الأيام، وهكذا لم يكن عجبًا أن تكون الأخيرة فما زلنا نشهد مَن يحاول أن يضفيَ الشباب على الشيخوخة.

ويعيد التاريخ نفسه، ويرغم الواقع الواهمين أن يفيقوا إلى الحقيقة ويفيئوا إلى الرشد، ولكنهم مساكين فإنهم لا يفيئون إلا بعد أن يكونوا قد أهدروا كرامة الكبر فيهم، وسحقوا جلال السنين.

وتلك سنة الحياة في أبنائها؛ فكل إنسان يظن أن ما يقع للآخرين لا يمكن أن يقع له، وكل إنسان يظن أنه استثناء من البشر لا يجري عليه ما يجري على سائر أبناء البشر.

ولو أن البشر اتخذ من تاريخ البشر عبرة لحفظ الكبيرُ كرامتَه، ولامتنعَ القاتل عن القتل، وارتدع السارق عن السرقة.

و«لو» حرف امتناع لوجود، فكيف تكون دنيا إذن إذا هي لم تمتلئ بالمضيعين لكرامتهم، الممتهنين لحياة الإنسان، المعتدين على حقوق الآخرين.

حياة من السير

كانت أنواع القطن التي تُزرع في مصر في ثلاثينيات هذا القرن نوعين هما — فيما أذكر — المعرض والزجورا، وكان الزارعون يختارون النوع الذي يجود محصوله في الأرض التي يقومون بزراعتها، وحدث أن جمع أحدُ أعيان الريف الظرفاء قطنه، وعرضه للبيع، وجاء إليه التاجر يريد أن يشتريَه وسأل التاجر: ما نوع قطنك؟

– أيهما الأعلى سعرًا؟

– المعرض.

– إذن فقطني معرض.

– عظيم، وأنا اشتريت.

ودفع التاجر العربون، وفي اليوم التالي أتى بالأكياس لتُعبأ، ودخل يرى القطن، ولكنه قبل أن يمدَّ إليه يده عرف القطن ونوعه، والتفت إلى الظريف البائع.

– ولكن يا بك هذا القطن زجورا وليس معرض.

– كيف؟

– أنا لا أحتاج للفحص.

– ولكن هذا الذي تقول غير صحيح.

– كيف؟ هذا أمر لا يختلف فيه اثنان.

– قُل لي أولًا؛ قطن مَن هذا؟

– قطنك أنت.

– فأنا وحدي صاحب الحق في تسميته، وقد سميته معرض وأنا حر.

وأصبح هذا الحوار نادرة يتندر بها أبناء المنطقة جميعًا على أنه نكتة يتناقلونها أو على الأقل هذا ما كنت أظنه أنا، حتى جاد علينا الزمن الأخير بجماعة من النقاد يصنفون

الكتاب حسب ما يشتهون، يُثبتون مَن يشاءون في قائمة الأدب، وينفون عنها مَن لا يرضون عنهم، وإن كان الفلاح الظريف قد رأى أن محصول قطنه مِلكه هو يسميه بالاسم الذي يختاره، فقد رأى النقاد الذين أُشير إليهم أن الساحة الأدبية جميعها ملك لهم يُدخلون فيها مَن يشاءون ويمنعون عنها مَن لا يتفق معهم في المذهب، ومن لا يبذل ماء وجهه عند أقدامهم لينال منهم تذكرة الدخول إلى الساحة الأدبية التي استقر في أوهامهم أنهم يملكونها.

والإذن منهم بالدخول أو المنع يقع بأحكام نهائية لا حيثيات لها، ومن ثَم فهي أحكام غير قابلة للاستئناف أو لإعادة النظر.

فالحكم منهم يصدر بالصمت أحيانًا، أو يصدر في أحيان أخرى بمرسوم أو فرمان خديوي يرسم الأسماء التي يرضون عنها أدباء، ولا يذكر أسماء المغضوب عليهم.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يُدخل إلى جنته مَن أحسن عملًا، وإلى جحيمه مَن أساء، وإذا كان جل علاه يعرض الناس في يوم الحشر، ويحاكمهم مع أنه يعرف ما يُخفون وما يُبدون، وإذا كان تقدَّس عدله يريد لعباده أن يكونوا على بينة من أسباب الحكم لهم بجنات النعيم أو الحكم عليهم بعذاب الجحيم، فإن النقَّاد يستكثرون هذا على عباده من الكتَّاب، فيقرِّبون مَن يستلطفون ويتجاهلون مَن يستثقلون، ولا يقبلون أن يسألهم أحد من الناس لماذا، فهم يرون أنهم فوق السؤال بل المساءلة.

ولهذا لم يكن عجيبًا أن يصبح الكُتاب والقراء في وادٍ والنقاد في وادٍ آخر، صنعه لهم كِبْرهم الكاذب وخداعهم لأنفسهم واعتقادهم الموهوم أنهم من جنس غير جنس الناس، ومن طينة غير طينتهم.

ولما كان الناس الذين هم القراء لا يحبون أن يخاطبوا جنسًا غير جنسهم فقد أصبحوا بعيدين كل البعد عن النقاد لا يشعرون بهم، ولا ينتظرون رأيهم فيما يصدر من أعمال فنية. وتصدَّى القراء أنفسهم للحكم على الأعمال الفنية يُقبلون عليها بالقدر الذي يقدرونها به غير ملتفتين إلى النقاد وآرائهم.

ولكن هذا الحديث عن بعض النقاد ليس يمنعني أن أذكر أن هناك نُقَّادًا من الجيل الذي لا أستطيع أن أصفَه بالشباب، ولا أستطيع أن أتجاوز به الكهولة، ولكنه جيل يمثل عندي لطف الله الذي يرسله سبحانه عند كل خطب ليزيح بالأمل فيه قتامة اليأس.

ولكن أفراد هذا الجيل قلة لا تستطيع أن تواكب الأعمال الفنية الكثيرة التي ينتجها الكُتَّاب المنشئون.

أما النقاد الذين مارسوا النقد في الخمسينيات، والذين تجاوزوا اليوم الكهولة، والذين كنَّا نأمل عندهم أن يتصدروا حركة النقد الأدبي في مصر والعالم العربي فقد انشغلوا بغير النقد، وانصرفوا عن تقديم الأعمال الأدبية للناشئة، وعن تعميق الأعمال الفنية.

وإني أكتب هذه الكلمات في ذكرى عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين الذي ظل إلى آخر يوم من أيام حياته يشجع ناشئة الأدب، ويقدم أعمال الكبار من الكُتَّاب.

والدكتور طه حسين زعيم جيل العمالقة، وقد كان رحمه الله أديبًا شاملًا؛ لأنه أدرك أن الدور الذي ينبغي لجيله هو أن يفتح النوافذ جميعًا بين الأدب العربي والآداب العالمية جميعًا، فقد كان أستاذًا في الجامعة وكل أجيال الأساتذة في الأدب العربي اليوم هم تلامذة تلامذته، وهو أول مَن وضع النقد العربي على الأسس العالمية بعد أن كان النقد في كتب التراث لا يزيد عن أحكام جامعة أو استقصاء للألفاظ أو وضع قواعد نقدية للشعر وحده، وما كان هذا قصورًا عند هؤلاء النقاد القدامى فقد كان الشعر هو الأدب العربي كله، أو يكاد، ولم تكن الألوان الجديدة من الأدب قد ظهرت بعد في أدبنا.

فحين ظهر مسرح توفيق الحكيم بادر طه حسين يُشيد بهذه الظاهرة الجديدة في الأدب العربي، وحين ظهرت زينب لأستاذنا العظيم الدكتور محمد حسين هيكل باشا لم يكتفِ الدكتور طه حسين بالنقد، وإنما كتب في الرواية حتى لنكاد نقول إنه لم يترك لونًا من ألوان الرواية دون أن يكتب فيه، فهو يكتب صراع الإنسان مع عقبات الحياة في الأيام التي لا أحب أن أعتبرها سيرة ذاتية، وإن كانت تروي تاريخ حياته، إلا أنني أعتقد أن السيرة الذاتية لا تتحقق إلا إذا أسفر الكاتب سفورًا تامًّا عن اسمه وعن شخصيته الحقيقية، أما إذا روى عن شخص آخر حتى وإن لم يتخذ له اسمًا قائلًا عنه الفتى مثلما فعل الدكتور العميد، وإن هو اصطنع لأشخاص الرواية أسماء غير أسمائهم فإن العمل حينئذٍ يصبح عملًا روائيًّا لا يحاسب الكاتب محاسبة تاريخية، وإنما ينظر إليه على أنه إبداع فني.

وكتَب طه حسين الرواية الرمزية في شهر زاد، وكتب رواية الأسرة في شجرة البؤس، وكتب رواية الصراع في التقاليد في دعاء الكروان، وكتب صراع الإنسان بين آماله وقدراته في رواية أديب، وإنشاء الأعمال الفنية القصصية والروائية التاريخية، وعلى هامش السيرة وفي المعذبون في الأرض، ولا سبيل إلى الإحصاء الكامل. ثم ننظر إلى الدكتور العميد فتجده قد ألَّف في التاريخ أعمالًا أصبحت برائع أسلوبه وبتدفقه كالنمير حينًا وكالبحر أحيانًا، أعمالًا أدبية من سوامق الأدب العربي مثل مرآة الإسلام، والشيخان، والفتنة الكبرى.

ولا يقف الرائد العميد عند هذا بل يقدم الأعمال الفنية الكبرى في الأدب الفرنسي من مسرح وقصة.

فليس عجيبًا إذن أن يعرف العالم العربي هذا الجيل على أنه جيل الأدب الشامل الذي يُعمل قلمه في شتى مناحي الأدب وفروعه، وكان طبيعيًّا أن يكون الجيل التالي له هو جيل التخصص، فيتخصص أدباء في فنِّ الرواية والقصة، وآخرون في فنِّ المسرح، وآخرون في الأدب النقدي.

وقد ظهرت أجيال الروائيين، وتتابعت أعمالهم وملأت الساحة الأدبية في العالم العربي أجمع.

وظهر جيل المسرحيين وإن كان مقصرًا بعض الشيء، وظهر النقاد إلا أنهم قليلًا ما ثبتوا في مواقعهم ثم مالوا إلى الأدب الإنشائي أو البحث عن المال أو الصمت الكامل؛ فأصبحوا وهم لا ينتمون إلى الأدباء المنشئين ولا هم إلى النقاد ينتسبون، واكتفوا بأن يُطلقوا حكمًا عامًّا ظالمًا لا عدل فيه، ولا حق أن الحركة الأدبية قد خمدت ليعفوا أنفسهم من تأثُّر الأعمال الأدبية والكتَّاب الجدد، وتقديمها وتقديمهم، بينما الحقيقة التي لا شك فيها أن الحركة الأدبية ثرية غاية الثراء بما يكتب كبار الكتَّاب غنية كل الغناء بالأجيال الجديدة التي أصبحت اليوم مئات من القصَّاصين والروائيين والمسرحيين والشعراء.

وبعدُ فليس عجبًا أن تُثير ذكرى الدكتور العميد كل هذه الخواطر فهو مَن يصدق عليه قول أمير الشعراء:

لم يَمُت مَن له أثر ... وحياةٌ من السِّيَر
أدعُه غائبًا وإن ... بَعُدت غايةُ السفر
آيبُ الفضلِ كلما ... آبَتِ الشمسُ والقمر
إنما الميْتُ مَن مشى ... ميِّتَ الخيرِ والخبَر
مَن إذا عاش لم يُفِد ... وإذا مات لم يَضِر

رحم الله العميد والأمير جميعًا.

أما نحن، فلا نعجب

تقول ابنتي ما معناه: يا أبي سمعت عن قوم يعملون اليوم عند أثرياء من دول البترول، وكانوا في مصر يحملون ألقابًا ورثوها، وهي ألقاب رفيعة أقصى ما تكون الرفعة سامقة أعلى ما يكون السموق، وكانوا يملكون أموالًا، ولا شك أن المال مهما يكن مصدره واللقب مهما يكن موروثًا خليقان أن يُكسبهما شيئًا من الكبرياء، وقد كنا نسمع أنهم كانوا متكبرين في الأرض، وأنا يا أبي لا أعجب لهؤلاء القوم أن يعملوا لدى أصحاب الثراء، فمن حق كل إنسان بل من واجبه أن يبحث عن الرزق، ولكن المهنة التي يمتهنون حقيرة غاية الحقارة دنيئة كل الدناءة، حتى إنني لا أسمح لنفسي أن أنطق بها. فقلت لابنتي: أحمد الله يا ابنتي أن جيلك يملك ملكة التعجب والدهشة، فإننا نحن جيل حرم علينا أن نعجب من شيء أو ندهش لأمر، فقد مرَّ بجيلنا من الأهوال ما أفقده نعمة التعجب.

وإن كنتِ عجبت من أمر هؤلاء فلأنك لا تعرفين أنهم قوم كانوا على قدر من الغباء، لم يُتَح لجماعة من الناس قط. فقد سكبت عليهم مصر من نِعَمها ما جعلهم على قمتها ثراءً ومكانة وجاهًا وسلطانًا، وبدلًا من أن يشكروا لها أنعمها، ويندمجوا بشعبها، ويبذلوا من أموالهم ومن جاههم ما يُعين بائسًا ويكسو عريانًا ويُقيت جائعًا، وبدلًا من أن يتصدروا جهات البر وجمعيات الخير طغى أغلبهم واستكبر، وشغلوا بكل حقير تافه من الحياة إلا قلة منهم كانت حيث ينبغي لها أن تكون، والشكر لهذه القلة محتم؛ لأنها اختطت في الحياة طريقًا لم يسنَّه لها الكثرة الغالبة من أسرتها.

أما الكثرة الغالبة فكانت غارقة في غيِّها وترفِها الفارغ، وكانت لا تنطق العربية وتتعلم كل اللغات إلا لغة مصر التي تعيش من جدواها ومن خيرها. فحين نزلت بهم

الكارثة تمزقوا أشتاتًا من الآدميين لا يجدون ملجأ أو ملاذًا وهانوا على أنفسهم وهانوا على الناس، ولا شك أنك يا ابنتي سمعتني أُردِّد بيت المتنبي:

مَن يَهُن يسهل الهوانُ عليه ما لـجُـرحٍ بـمـيـتٍ إيـلام

فإن العظمة يا ابنتي والكبرياء واحترام الذات لا يكوِّنها المال والسلطان، وإنما هي تنغرس في داخل النفوس الشريفة إذا كانت لا تُقدِّم إلا صالحًا، ولا تسعى إلا لخير، ولا تعمل إلا كل ما هو شريف نقي يعود نفعُه على المجتمع بأَسْره، وليس على فرد ولا على أسرة فقط. فهؤلاء يا ابنتي لهم عذرهم إذا هم انحدروا إلى مهاوي الحضيض، فما كانوا عظماء قط وما كان انتفاخهم إلا هواء فاسدًا، ومظهرًا خداعًا لا يقتنع به إلا مَن كان تافهًا مثلهم.

فلا عليك يا ابنتي أن تعجبي، ولكن أليس الأولى بك يا ابنتي أن تعجبي من أقوام آخرين، ألَا تعجبين من قوم هبط عليهم الثراء الفاحش تصيدوه من كل طريقٍ ملتوٍ، ومن كل مظنة عفنة حتى أصبحوا على جبل من المال وإن يكن مالًا حرامًا. ألَا تعجبين منهم بعد ذلك يظلون يجمعون المال لا يشبعون. وربما قلت يا أبي إن هؤلاء أصبح جمع المال بالنسبة إليهم غاية لا وسيلة، وإنني يا ابنتي إذا قلت هذا سأوافقك عليه، ولكن ألا تعجبين أنهم لا يزالون يبيعون كرامتهم بيعَ السماح ويقبلون أن يكونوا موطئًا للنعال، ويقبلون أن يظلوا متسولين على الأبواب يسألون الرضاء أو يستجدون منصبًا، أو يتشممون أرجل كرسي فعل الكلاب التي لا صاحب لها.

وإن شئت يا ابنتي فاعجبي من قوم أكرمهم قومهم وجعلوا لهم في المجتمع المصري وزنًا، ولكنهم يخونون قومهم ومصرهم ويتسقطون على بلاد تقف منا موقف العداء والتهجم والاستفزاز في صغار مضحك وفي طفولة تدعو إلى السخرية والهزء، يتمتعون بها في كل أنحاء العالم المتحضر وغير المتحضر على السواء. ألا يُثير عجبك يا ابنتي أن يقصد إلى هؤلاء مَن تُكرمهم بلادهم ليكونوا هناك يدًا تتسول، ولتكون البضاعة التي يبيعونها كرامة مصر وكرامة الشعب المصري.

ألم تتعجبي يا ابنتي من أقوام يظلون يطوفون ببلاد العالم ليزدادوا على الغنى مالًا هم عنه غناء، ولكن رخصت عليهم كرامتهم وهانت عليهم نفوسهم، وما دامت نفوسهم قد هانت عليهم فلا شك أن مصر التي هم ينتسبون إليها شاءوا أم أبوا أكثر عليهم هوانًا؟!

أوَلَم تعجبي يا ابنتي من قوم نالوا المناصب وشاركوا في المصائب التي تواجه مصر اليوم وفي الكوارث التي تحيط بشوارعها ومبانيها وتليفوناتها وكهربائها، وأُبعدوا عن مناصبهم، فإذا السعار يتفشاهم، وإذا هم ينقلبون صراخًا لا ينقطع، وحين كان الواحد منهم ملقًى على كرسيِّه السلطاني كالشيء لا يستطيع أن يهمس بمعارضة، ولا يجرؤ أن يحادث نفسه بكلمة واحدة من جملة تدل على أنه لا يوافق، ولكن اليوم وفي ظل الحرية ينطلق هجومه ويعلو صوته وكأنه البطل المغوار أو الأسد الرئبال، وبماذا يطالب؛ يطالب بالحرية ناسيًا أنه حين يطالب بها على الملأ يُعلن بما لا يدع مجالًا للشك أنه في ظلها يعيش وفي أجوائها يتنفس بل ويصيح أيضًا؟!

وإن شئتِ يا ابنتي فاعجبي من قوم يقوم قائمهم على إذلال الإنسان، وقتل الشعوب، وسفك دمائها، والتسلط عليها قهرًا بالسلاح والفتك والجبروت. ولا عليكِ يا ابنتي أن تفكِّري مَن هم فما يكلفك الأمر إلا نظرة إلى أفغانستان وبولندا اليوم أو نظرة أخرى إلى ما فعلوا في المجر وفي تشيكوسلوفاكيا وفي غيرها.

اعجبي لهؤلاء القوم يساندون شيعتهم في مصر، ويظاهرونهم بكل وسائل المساندة والمظاهرة ولن أفعل، ويصيح شيعتُهم مطالبين بالديمقراطية، والديمقراطية كما تعلمين هي حكم الشعب للشعب لمصلحة الشعب، فهم إذن يطالبون بحكم الشعب بالشعب، وهم الذين يقتلون الشعوب لتقبل حكمهم وهم الذين يختطفون الأطفال اليوم في أفغانستان ليلقنوهم إلحادهم، وقد سمعنا عن عصابات تختطف أطفالًا، ولكنك ما أظنك يا ابنتي سمعت عن دولة تختطف أطفالًا، شيعة هذه الدولة وأنصارها يطالبون بالديمقراطية وبالحرية ولا يجدون مَن يقول لهم إنهم حين يطالبون بالديمقراطية والحرية ويعلنون هذه المطالبة يؤكدون دون أن يشعروا أنهم يعيشون الديمقراطية أو ما يشبهها على الأقل، ويعيشون الحرية أكمل ما تكون الحرية؛ لأن البلاد الدكتاتورية لا تسمح طبعًا لأحد أن يناديَ فيها بالديمقراطية، وويل كل الويل لمن يطالب فيها بالحرية، وقد عشنا يا ابنتي أيامًا سوداء، لا تذكرينها أنتِ، كانت الحرية فيها قتيلًا لا يجرؤ أحد أن يذكر مقتلته، وكانت لا إله إلا الله لا تقال إلا خفية وكأنها جريمة.

وبعد يا ابنتي؛ فما أقل هذا الذي ذكرت مما يستحق تعجبك، أما أنا يا ابنتي فكما قلت لك فقد فقدت نعمة التعجب، لا أفقدك الله إياها، فإن تعجبك أنتِ وأبناء جيلك أملُنا في الغد ونظرتنا المضيئة إلى المستقبل.

تتغير الدنيا ولا تتغير

ما أكثر ما نقرأ! وكم تخدعنا الكلمات المطبوعة فتجعلنا نقرأ ما كان يحسن بنا ألَّا نقرأَه، وقد ازداد الهزال وندر الكريم، واختلطت معاني الحياة فأصبحت الثقافة هي رقص العاريات، والعلم هو دعاية الفارغين، وساد تجار الشرف، وتوارَى ذو الخُلق الرفيع يُداري شرفه وسمو نفسه، وكأنه بهما من ذوي العاهات.

عصر بخيس مهين هو نتاج فترة رشا فيها القائمون على الأمر الجماعات كجماعات لا أفرادًا أو وحدانًا.

فسوَّلوا للعاملين أن يأخذوا ولا يعطوا، ورتبوا لهم حقوقًا ولم يرتبوا عليهم واجبات وانماع ميزان الحياة. فإذا العامل في المصنع لا يعمل إلا أن يلهوَ واثقًا أن العلاوة ستوافيه، وأن العقاب عنه قصيٌّ بعيد، وتنخرب مصر، ويهبط الإنتاج فيها، وتلجأ الدولة إلى الضمير فلا تجده أو إلى الأمانة فتفتقدها لتفقدها، ويعلو الضجيج مع ضجيج الآلات التي لا تجد مَن يُديرها.

ويزيد عدد المدافعين عن عدد اللائمين في زمن الخُلق الخراب والشرف المضاع، والضمير القتيل وبيد أصحابه كان القتل.

ويرشو عهد تلك الفترة التلاميذ، فيقدم لهم التعليم المجاني بغير قيد ولا شرط، وتنفق الدولة من دماء أبنائها الشرفاء، ويأبى التلاميذ أن يبذلوا بعض الجهد ليردُّوا فضل الدولة، ويرسب الطالب عامًا وعامين وثلاثة ولا يجد رادعًا ولا عقوبة فما له إذن لا يلهو ويلعب ما شاء. وما له لا ينصرف عن المذاكرة ما حلا له المنصرف ما دام واثقًا أنه في عامه القادم تلميذ وبمجانية كاملة أيضًا.

وحين يصيح شريف أوقفوا هذا العبث، تتعالى الصيحات في وجهه أن التعليم مجاني، وسيظل مجانيًّا. حتى للطلبة العابثين الماجنين اللاهين اللاعبين ... نعم حتى لهم.

فإذا قال عقلاء ليكن التعليم مجانيًّا للجاد من الطلبة وليس للماجن، ارتفعت لافتة الفساد صائحة بل للجميع، وحين يقول قائل أليس هناك في مقابل كل حق واجب؛ يلفظون بما لا تفهم ويهلوسون بما لا يعقل. ونُصرُّ نحن على القول إن المجانية للشعب أن يتعلم على شرط واحد هو أن يكون راغبًا في التعليم لا راغبًا عنه، فإذا رسب الطالب مرة حُرم من المجانية، ولكن هل من مجيب؟

إن الزمانَ زمانُ لهوٍ ومجون، ونرى الفن في زماننا هذا فنجد الأشعار بلا موسيقى، ونرى الموسيقى بلا طرب، ونرى الرسوم بلا معنًى، ونرى الكلام وقد فقد مقوماته وأسسه فلا الرواية رواية، ولا القصة قصة، ولا التمثيلية تمثيلية، ولا المسرحية مسرحية.

ويدخل إلى الميدان مَن لا يدري عن أسسه شيئًا، ويسقط الذوق العام؛ فنرى التمثيلية فإذا هي مقالة، وترى المقالة فإذا هي عيٌّ وبلاهة، ونرى القصة فإذا هي حدوتة، ونرى الرواية فإذا هي ظلام وقتامة وانحطاط، وتنشأ طبقة من المغنين تضج ولا تطرب وتصوت ولا تقول، ونسمع الأصوات فإذا الحرف لا يكتمل كلمة، والكلمة لا تكتمل جملة، والجملة لا تُعطي معنًى، ويعم الخراب. فإن فن الحياة الخراب لا بد أن يكون خرابًا.

وتصبح البلد الوحيد في العالم الذي ينال الإنسان فيه حقوقًا ولا يتحمل واجبات فيسقط معنى الحياة ويسقط معها فنُّها.

وترى الرشوة وهي عماد الاقتصاد، ونرى صاحب القلم وهو يبيع قلمه، وهو يعلم أن مَن يبيع قلمه فقد باع شرفه، ونرى كُتَّابًا يتاجرون بالوطنية على شعبهم، ويزايدون بادعاء البطولة على قومهم وهم يدرون أنهم لصوص يسرقون ثقة القرَّاء بهم، وربما لا يدرون أنهم بما يفعلون شرٌّ من اللص الذي قد يسرق مالًا محدودَ القيمة بينما ثقة الشعب لا يساويها مال في العالم.

وأقرأُ بين خرف المخرفين أنه لا بأس أن تتغير بعضُ القيم؛ شاهَ من قائل وشاه قوله. كيف تتغير القيم .. هيهات. فإن القيم أصبحت قيمًا لأنها ثابتة لا تتغير.

فالقاتل منذ قتل قابيل هابيل قاتل، واللص سارق مرفوض من كل خلق ومن كل دين، والمرتشي ساقط الكرامة آكلٌ للسحت ملعون بنص كتابنا، والسحت هو الرشوة وهو ملعون من الله والناس، وملعون قبل الأديان، والخائن خائن وتاجر العرض في الحضيض الأسفل من المجتمع، وفي الدرك الأسفل من النار، والمنافق إنسان رخيص باع إنسانيته باختياره فصار شرًّا من الحيوان.

والشريف يظل شريفًا، والنبيل من الخلق يظل نبيلًا، ويظل السامق سامقًا.

ومرفوض قول القائل نترك الماضي، فإن فترة الطغيان هي التي حطمت هذه القيم، وقد نُصلح ما خرب ودُمِّر من وسائل الحياة، ولكن هيهات أن نُقيم ما تفسخ من قِيَمنا واضمحل إلا إذا أدركنا إدراك يقين لا شك فيه أن القيم ثابتة، وأنه لا يجوز لها ولا يعقل أحد أن يتغير منها شيء، ولا بد أن نعرف المائل حتى نُقيمَ مائله، وأن نستوثق من المعوج حتى نُقوِّم عِوَجه.

ولا يقولن قائل إن كل ماضٍ فات، فلا هو من الماضي ولا هو قد فات. فموسوليني ما زال يُلقي بظله على إيطاليا حتى اليوم، وهتلر ما زال تخريبه لألمانيا ماثلًا في تقسيمه لشعبها إلى دولتين تشقَى كلٌّ منهما بما جلبه عليهما، وشاه إيران هو مصدر ما تلاقيه إيران من دمار.

وقد شقينا بفاروق، ولا نستطيع أن نقول عنه إنه ماضٍ ولا من جاء بعده يعتبر ماضيًا.

فالتاريخ حلقات مترابطة متصلة لا تنفصل حلقة منه عن حلقة.

والذي نشهده اليوم من فساد ضمائر وفساد ذمم وانحطاط بشري هو بعض آثار الأيام القريبة التي رانت علينا بالطغيان.

والرئيس الحالي من أشرف من عرفت خلقًا ومقصدًا، وهو بهذا الشرف في الخلق والمقصد يريد أن يعيد إلى مصر وجهها المشرف النبيل. ومَن كان مثله شريفًا يكون ضيقه بالانحطاط مضاعفًا ألف ضعف، وهو يعلم علم يقين أنه لا بد أن تعود مصر للقيم التي نشأ في ظلها، وهو يعلم علم اليقين أن القيم ثابتة ثبوت الأزل — قط لم تتغير وأبدًا لن تتغير.

وأنه قد تتغير العوائد والتقاليد والمظاهر، أما القيم فهي أشد ثبوتًا من أعتى الجبال، تتغير الدنيا ولا تتغير.

وإن خالها تخفى

وقف القلم طويلًا قبل أن أبدأ هذا المقال، فأنا أبحث عن تعريف يحدد الزمان الذي أريد أن أرويَ منه هذه القصة إليك؛ فهو في زمان كان فيه الآدميون سلعة تُباع وتشترى، وكانت السلعة تسمَّى العبيد، فماذا تراني أقول لأمير هذا الزمان عن غيره، هل يصلح لي أن أقول زمن العبيد والسادة هيهات، فإن هذا التعريف يجعل الزمان يختلط بكل الأزمنة، ويقع القارئ في متاهة من التاريخ، ولا يستطيع أن يتعرف على الزمان الذي أقصد إليه.

فكل الأزمنة كان فيها عبيدًا وكان فيها عبودية، وإن كان العبيد في الزمان الماضي يُباعون ويشترون بالمال الصريح. فكم شهدنا من عهود كان الإنسان فيها يُباع بالوظيفة أو بالجنس أو بالمال، وإن كان الزمان الماضي يقرُّ البيع بين المتعاقدَين بإيجاب من البائع، وقبول من المشتري، فلكم شهدنا البائع هو البضاعة ذاتها، فباع الناس أنفسهم للسلطان أو للشيطان أو للمرأة أو للرغبة أو لهوان نفس أو لضعة قصد أو لسقوط مروءة، وكان بائعو أنفسهم ولا يزالون يجدون المشتري حاضرًا من قريب.

وما أحسبك تلحُّ عليَّ أقدِّم إليك الأمثلة؛ فالأمثلة تُطالعك كل يوم في كُتَّاب يبيعون أنفسهم وأوطانهم إلى مَن يشتري في سوق النخاسة الأدبية التي اتسع واستفحل أمره، وأصبح المشترون فيها دولًا يمثلها رؤساء مخاريق وجدوا مَن يقول لهم إن مَن يبيع نفسه يبيع وطنه، فألقَوا بأموال شعوبهم في السوق، واشتروا الأقلام، وأصبحت سوق العبيد حقيقة قائمة لا يحكمها قانون إلا الخيانة، ولا تضبطها قاعدة إلا الوضاعة من بائع نفسه والمشتري جميعًا.

وكان العبيد في ظلمة الحياة يباعون ويشترون بقوانين معلنة وضوابط واضحة، فهل تحضَّر الزمان أم تأخر، وهل ارتفعت قيمة الإنسان أم تدهورت.

وبعد فما زلتُ حائرًا كيف أبدأ رواية قصتي إليك، فلأقل إذن في ذلك الزمان الذي كانت فيه تجارة العبيد معلنة غير مستترة مشهرة غير مخبوءة، كان هناك عبدٌ يتوق إلى الحرية، وكان يعرف أن سيده رجل صالح يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وكان هذا السيد معجبًا بخطيب يخطب الجمعة فكان حريصًا كلَّ الحرص على أن يصلي كل أسبوع في المسجد الذي يخطب فيه هذا الخطيب، فقصد العبد إلى الخطيب يرجوه أن يجعل خطبة الجمعة عن وجوب إعتاق العبيد، وأن يذكِّر الناس بقوله تعالى في سورة البلد: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ ووعد الخطيب أن يستجيب لرجاء العبد المُشوق إلى الحرية.

وانتظر العبد ومرَّت الأسابيع والخطيب يخطب في كل جمعة، ولكنه لا يفي بوعده ويعجب العبد، فهو يعرف هذا الرجل، ويعلم عنه أنه لا يَعِد إلا أنجز فما له في هذه المرة يخلف وعده وينكص عنه.

وفي أحد الجُمَع خطب الخطيب، فإذا خطبتُه كلُّها عن كرامة الإنسان، وعن كراهية الله للاستعباد وراح يقرأ بين المصلين كلَّ ما جاء في القرآن الكريم من حثٍّ للمؤمنين أن يعتقوا عبيدهم، وأن يتقربوا إلى الذات العليَّة بفك الرقاب.

وفي نفس اليوم أطلق السيدُ العبدَ وفكَّ عنه إسار العبودية، وقصد العبد إلى الشيخ.

– شكرَ الله لك أيها الرجل الصالح.

– إنما أديتُ واجبي يا بني.

– وأوفيت بعهدك أيضًا.

– إن العهد كان مسئولًا يا بني.

– ولكنك يا مولاي تراخيت في إنجاز وعدك وما عهدتُك كذلك.

– يعلم الله وحده سبب هذا التراخي.

– ألَا يجوز لي أن أعلمه أنا أيضًا.

– لا بأس يا بني، إنك حين طلبتَ إليَّ ذلك لم أكن أملك شيئًا من المال فانتظرتُ حتى جمعت من المال ما يكفي لشراء عبد فاشتريته ثم أطلقته، وحين فعلت وجدت من حقي أن أعظَ الناس بفكِّ رقاب الناس؛ لأن الواعظ لا يُسمع قوله إذا لم يُعطِ المثل من نفسه، ولو كنتُ ألقيتُ خطبتي هذه دون أن أصنع ما صنعت ما استجاب لي سيدُك السابق، ولا استجاب لي غيره؛ فالكلمة تحمل قيمتها إذا صدرت عن شخص يعمل بها قبل الآخرين ويجعل من نفسه المثل الذي به يتأسَّى السامعون، وحينئذٍ ... وحينئذٍ فقط تقع الكلمة في موقعها وتبلغ من السامع حيث يريد لها أن تبلغ.

وكانت الحجة قاطعة، وكرَّر الحُرُّ الشكرَ وانصرف عن الخطيب هانئًا سعيدًا.

وأنا اليوم أذكر هذه القصة وقد طالعتها منذ قريب في أحد الكتب لأُنعمَ النظر في مضطرب الحياة، فأجد الداعين إلى الشرف هم أكثر الناس فجورًا، والمتشدقين بالأمانة هم أعظم الناس خيانة، والمتربعين على دست النصيحة هم أكثر الناس حاجة للنصيحة، فلا عجب إذن أن يذهب كلامهم هباء من الهباء، وكيف يسوغ عند الناس أن يروا المتحدث عن التقشف هو أكثر الناس ثراء، جمع أمواله من الدول التي استأجرته ليهاجم مصر وحكام مصر، حتى إذا نال من المال ما يكفي أحفاد أحفاد أحفاده قَدِمَ إلى مصر يصيح في الناس أن اكتفوا بالقليل، واقفلوا الانفتاح وعودوا إلى الانغلاق.

وكيف يسوغ عند الناس أن يروا المسئول يخطب في كل يوم عن الأمانة والشرف والاستقامة، وهم يعلمون عنه أنه لصٌّ خائن للأمانة مضيِّعٌ للشرف لا استقامة له إلا إذا قصد إلى السرقة والاغتصاب والنهب، فإنه حينئذٍ يعرف الطريق إليها حقَّ المعرفة.

وكيف يسوغ عند الناس أن يتكلم قوم عن حقِّ الله وهم ملحدون لا يعترفون بالله ولا بالأديان ولا بالروح؛ فالعالم كلُّه مادة والمادة هي أصل الكون.

وكيف يسوغ عند الناس أن يدَّعيَ قوم الجرأة والبطولة اليوم والحرية متاحة والدار أمان، والحكم شعاره القانون، وقد رأيناهم يعفرون رءوسهم على أعتاب الطغيان، ويمتدحون بالظلم ويشيدون بالجبروت ثم هم اليوم يهاجمون الحرية، وينتهزون منها فرصة ليُظهروا أنفسهم في صورة الأبطال، ويبيعون هجومهم إلى الجرائد التي تُطبع خارج مصر، والتي تريد أن يزداد توزيعها بالهجوم على كبرى الدول العربية.

وما زيادة التوزيع لشراء من الجمهور وإنما لشراء من الدول.

إن جميع هؤلاء وأمثالهم يحسبون أنهم قادرون أن يُخفوا حقائقهم على الشعب، وليس يعنيهم قول زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلم

إسلام وشيوعية؛ لا يلتقيان

أقرأُ بإعجابٍ الفصولَ التي ينشرها الكاتب الكبير الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي بجريدة الأهرام بعنوان: عليٌّ إمام المتقين، وقد ظللت على إعجابي بها حتى جاءني هنا في لوزان أهرام الأربعاء ٧ سبتمبر المنشور به الفصل الثامن من البحث، وجدت المقال يتعارض بعضٌ منه مع الجزء الأكبر من آخره، وعبد الرحمن الشرقاوي من الكتَّاب الذين أُكنُّ لهم كل تقدير وإكبار وتجمعني وإياه — والحمد لله — صلة من أقوى صلات الصداقة وأعمقها، ومن حقِّ هذه الصداقة عليَّ أن يكون الحق هو عمادها لا المجاملة؛ فإن الصداقة من مادة الصدق، والذي لا يصدق صديقَه عدوٌ، وحق الله أولى الحقوق بالرعاية لا يسبقه حقٌّ في الوجود.

يقول الأستاذ عبد الرحمن في منتصف المقال تقريبًا، وقال عليٌّ: إنه لا بأس بالغنَى والتمتع بزينة الحياة التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق التي أحلها الله، لا بأس بهذا كله. ومَن حرم ما أحل الله فهو آثم؛ كمَن أحلَّ ما حرمه الله، ولكن هذا المال يجب لكي يكون حلالًا أن يتوافر له أول الأمر أن يكسبه صاحبه بعمله وبلائه وجهده، لا أن يكون منحة من وليِّ الأمر لقرابة أو مودة أو نحو ذلك، أن القرآن الكريم يفسر بعضه البعض، وحين قال تعالى: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ قال في الوقت نفسه: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ وقال: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ وإذن فحق الملك قائم في أصله على العمل على ما يكسبه الإنسان بعمله، ومن هنا يحفظه الله تعالى فيحميه من السرقة ويكفل الميراث.

إلى هنا ينتهي كلام الأستاذ الشرقاوي الذي لا أخالفه في مضمونه، وإن كنت أتشكك في تفسير الآية الكريمة: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ﴾ إلى آخر الآية، فما أحسب أن التفاسير ذهبت إلى أن هذا التفضيل يكون في الرزق في الحياة الدنيا، وإنما هي الدرجات التي أعدها سبحانه في الباقية الخالدة، وكذلك أخالفه في تفسير الآية: ﴿أن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾ إلى آخر الآية. وأعتقدُ اعتقادًا راسخًا أن المقصود من الآية أن ليس للإنسان إلا ما سعى، فلا ينال عند الله أجرَ فضلٍ لم يَقُم به تمشِّيًا مع قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وقوله: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ومع كثير جدًّا من الآيات التي تُقرِّر أن الإنسان مسئول عن عمله أيًّا ما كان الأمر، فهذا هو الجزء الذي لا يمكن أن يختلف فيه مسلم مع الأستاذ الشرقاوي، وهو بهذا الجزء يقرر أن التملك حلال ما دام ليس منحه من وليِّ الأمر، وأن الله يحمي هذا التملك وينظم توريثه.

ولكن قليلًا ما نمضي في المقال فإذا نحن نجد المالكين جميعًا مصيرهم جهنم والنار والكي بالذهب والفضة، وإليك ما يقول الأستاذ الشرقاوي، وأن عليًّا ليُذكِّر عثمان بأيام عمر، وبما اتفقوا عليه جميعًا بأن يُعيد عمر توزيع الثروة حين راعهم انتشارُ الفقر على الرغم من تكدُّس ثروات الناس، ما نسيَ أحد بعدُ من الصحابة، واقتناع عمر وعثمان بقول عليٍّ: إنه ما من أحد يخزِّن فوق حاجته إلا حرَم آخرين من ذوي الحاجة. وأن عليًّا ليُذكِّر عثمان بعهد عمر: والله لئن بقيتُ إلى الحول لأُلحق أسفل الناس بأعلاهم لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء.

وإني أسأل الأستاذ عبد الرحمن أي المال هذا الذي يريد أن يتصرف به عمر هذا التصرف، إن كان مال الجماعة فهذا حقه، أما إن كان مال الأفراد فهيهات أن يقول عمر هذا القول أو يقوله عليٌّ، وإلا لما احتاج ماركس أن يُنشئ نظريته الشيوعية، واكتفى برأي عمر هذا وعلي، وإن كان هذا رأي عمر وقد صحب النبي عليه الصلاة والسلام قرابة عشرين عامًا، وكان مع أبي بكر في عامَي خلافته ثم كان هو أمير المؤمنين لمدة تسع سنوات، فما له إذن لم يُشِر بهذا الرأي وهو يشير، وما له لم ينفذه وهو أمير المؤمنين.

وكيف يقصد عمر مالَ الناس بهذا الرأي، كما يوحي بذلك أخي الأستاذ الشرقاوي، وهو مَن شهد خطبة الوداع والنبي ﷺ يقول: «إن دماءَكم وأموالكم حرامٌ بينكم»، وكيف يلقَى عمرُ ربَّه وما عرف التاريخُ بعدَ النبيِّ خائفًا من ربه كما كان يخاف عمر، والله سبحانه هو القائل: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ وماذا هو قائل

في الآيات تترى جميعًا بمعنى «يبسط الله الرزق لمن يشاء ويقدر»، أي يجعله مقدورًا قليلًا.

ويوغل الأستاذ عبد الرحمن حين يقترب من النهاية في هذا الفصل فيذكر ما يُلغى به كل ما جاء من قبل في هذه الحلقة من شرعية التملك والميراث، يقول على لسان عليٍّ فيما أظن، ثم أن الاقتناء مباح وهو غير مذموم إن لم تكن هناك حاجات تسدُّ أما إن كانت هناك حاجة لأحد فما يحق لمسلم أن يقتنيَ فوق حاجته ولو دينارًا، ولقد مات رجل في زمن الرسول، حيث كان في الأمة كثيرون من أصحاب الحاجات والجياع، فوجد في مئزر الرجل دينارًا، فقال رسول الله عنه إنه كانز وسيُكوَى بهذا الدينار كيةً واحدة، ووجد في مئزر آخر دينارين فقال ﷺ: هما كيتان.

وذكر قبل ذلك حديثًا للنبي على رواية عليٍّ أيضًا؛ مَن ترك صفراء أو بيضاء كُويَ بها. وكان يعني من كنز، وترك مالًا وفي الأمة أصحاب حاجة، مسلمين كانوا أم ذميين.

ويذكر قبل ذلك أن النبي سُئل: «أي مال نتخذ يا رسول الله؟ قال لسانًا ذاكرًا وقلبًا خاشعًا وزوجة تُعين أحدَكم على دينه.»

وإلى هنا وتقف. ما هذا يا أخانا، هل ألغى النبيُّ عليه الصلاة والسلام الميراث دون أن ندريَ ودون أن يتنبهَ إلى ذلك كلُّ المسلمين حتى الأئمة الذين أَلَّفت عنهم كتابًا من أحسن كتبك، وفيمَ أتعب إذن ماركس نفسَه، وما كان عليه إلا أن يُعلن إسلامه، ويرفع هذه الأحاديث شعارًا دون أن يقتل ما قتل من مئات الملايين في سبيل مذهبه.

إذن يا أستاذ عبد الرحمن فآيات المواريث جميعها المقصود بها أن تُقسم بين الورثة لسانًا ذاكرًا، وقلبًا خاشعًا، وزوجة تُعين أحدَنا على دينه، وكيف يُقسم هؤلاء؟ وبعد هذا فمَن ترك صفراء أو بيضاء كُويَ بها؛ فإن كان فدانًا قُوِّم بمائة دينار ذهبًا أُيكوَى به، وكانز الدينار له كية، وكانز الدينارين له كيتان، فما هو مصير عبد الرحمن بن عوف الذي ترك جبالًا من الذهب قُطعت بالفئوس، ووزِّعت على أبنائه وهم أحد عشر ابنًا، فأصبح كلٌّ منهم أغنى أغنياء العرب، وقد بَشَّر النبي عليه الصلاة والسلام عبد الرحمن بن عوف بالجنة، والنبي كما جاء في القرآن ليس إلا بشرًا رسولًا فهو لم يُبشر ابن عوف إلا بما أَوحى به الله، والله كان يعلم اللحظة التي سيموت فيها عبد الرحمن ويعلم أنه سيترك هذا الذهب، وبشره بالجنة أفيُكوى عبد الرحمن بن عوف بكل هذا؟ فما الجنة إذن؟ إنه لن يراها ولن يعرفها.

إذن فلا ميراث أو يكون المسلمون جميعًا والذميون أيضًا في اكتفاء وفي غير حاجة، إذن يُعطي الإنسانُ كلَّ مالِه للدولة، ويترك أبناءَه جياعًا يتكففون الناس، وكان بيده أن

يحميَ ماء وجوههم، في أي شرع هذا، وفي أي دين، وفي أي ملة، ولماذا إذن رفض ماركس الأديان وسماها أفيون الشعوب، وما أحسب أنه فعل ذلك إلا ناظرًا أكبر النظر إلى الدين الإسلامي، فهو أعظم الأديان عناية بالميراث وبحق الإنسان في ماله.

وفي أي عصر وفي أي زمن اكتفى الناس جميعًا، وفي أي دولة ما أحسب أن هذا حدث قط، وما أحسب أنه سيحدث أبدًا، إذن فلا ميراث إلا أن يكون الميراث لسانًا ذاكرًا، وقلبًا خاشعًا، وزوجة تُعين أحدَنا على دينه، ومع ذلك فأنت تعلم أن فاطمة البتول ابنة سيدنا النبي طالبت أبا بكر بقطعة أرض كان النبي قد أمر لها بربعها، وهي زوجة عليٍّ وبنت خير المرسلين.

أكانت الأمة في ذلك الحين جميعها مكتفية، ولم يكن مسلم ولا ذمي فيها محتاجًا.

بعض هذا يا أخي بعض هذا فإنني والله أعرف عنك أنك مسلم صادق الإسلام، وأنت تحاول بإخلاص أن تقرِّب المذهب الشيوعي إلى الإسلام، هيهات يا صاحبي لا يلتقيان، وأن إمام المتقين لو شهد ما تقوله على لسانه اليوم لسألك في بساطة ويسر، ولماذا لم أصنع أنا هذا حين وُليت الخلافة؟ أما كان أيسر عليه أن يلغيَ الميراث بموجب هذه الأحاديث النبوية ولا يكلفك مشقة هذا الاجتهاد؟

وبعد فقد رجعت إلى تفسير الكشاف للزمخشري لأستبين الرأي في الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾.

فوجدت الأستاذ عبد الرحمن نقل عن الزمخشري، ولكنه نقل ما يؤيد رأيه وألغى تمامًا ما ينسف رأيه نسفًا كاملًا، ولا أكتمك؛ لقد عجبت؛ ولهذا فإنني سأنقل إليك مادة الزمخشري كاملة وإن فيها غناء كل الغناء عن أيِّ رأي. يقول الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة:

«قيل نسخت الزكاة آية الكنز، وقيل هي ثابتة، وإنما عنَى بترك الإنفاق في سبيل الله منْعَ الزكاة، وعن النبي ﷺ «ما أُدِّيَ زكاته فليس بكنز، وإن كان باطنًا، وما بلغ أن يُزكَّى ولم يُزكَّ فهو كنز وإن كان ظاهرًا.» وعن ابن عمر رضي الله عنه: «كل ما أُدِّيَت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما لم يؤدَّ زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض.» فإن قلت ما نصنع بما روى سالم بن الجعد أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ «تبًّا للذهب تبًّا للفضة؛ قالها ثلاثًا، فقالوا أي مال نتخذ قال

لسانًا ذاكرًا وقلبًا خاشعًا وزوجة تُعين أحدكم على دينه.» وبقوله عليه الصلاة والسلام: «مَن ترك صفراء أو بيضاء كُوِيَ بها.» «وتوفي رجل فوُجد في مئزره دينار، فقال رسول الله ﷺ كية، وتوفي آخر فوُجد في مئزره ديناران فقال كيتان.» قلت كان هذا قبل أن تُفرض الزكاة، فأما بعد فرض الزكاة فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالًا من حيث أَذِن له فيه ويؤدي عليه ما أوجب عليه فيه ثم يعاقبه، ولقد كان كثير من الصحابة؛ كعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله (وكلاهما من المبشرين بالجنة)، وعبيد الله رضي الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض القنية؛ لأن الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد عن الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يُذمُّ صاحبه، ولكل حد، وما رويَ عن عليٍّ: «أربعة آلاف فما دونه نفقة، فما زاد فهو كنز.» كلامٌ في الأفضل.»

وإلى هنا ينتهي كلام الزمخشري، وبهذا يستقيم في العقل كلُّ الذي استشهد به الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي، ولو أنه نقل الرأيَ جميعًا دون أن يحجب أهم ما فيه وهو ما يصل بين هذا الرأي وبين الدين جميعًا لما استولت الدهشة على أذهان الناس، فإنَّ رأْيَ الأستاذ الشرقاوي يجعل كلَّ صاحب دينار كافرًا، ورأْيَ الزمخشري الذي نقل عنه الأستاذ الشرقاوي أن كل اكتناز مهما بلغ حلالٌ ما دامت الزكاة قد أُديت عنه، وهو الفرق نفسه بين الإسلام والشيوعية؛ فالطريقان شتى متباعدان متنافران لا يلتقيان أبدَ الدهر.

وبعد يا أخي الأعز، فأنا أعرف قوة إيمانك وأنك مستمسك بدينك، فبربِّك يا أخي الأعز، ألَا أعدتَ النظر في رأيك الآخر فهيهات لرأيك هذا أن يستقرَّ أمنًا أو قلقًا في نفس مسلم أبدًا، وفقك الله.

تعقيب على رد

توقعتُ أن يردَّ الأستاذ الأخ عبد الرحمن الشرقاوي على المقال الذي نشرتُه الأسبوع الماضي معلِّقًا على أحد فصوله، عن عليٍّ إمام المتقين، وتوقعتُ أيضًا أن يكون ردُّه بهذا الأدب الرفيع وهذا الخلق الأسمى الذي له أعرف؟ غير.

وبقيَ أن أعقِّب على ردِّه وأبدأ بأني ما إلى السخرية قصدتُ وحاشاي أن أفعل، وإنما هدفت إلى أن أُبيِّن انتقاء ما استشهد به مع ما أنزله الله على رسول فيما يتصل بالمال بعد الأحاديث التي ساقها الأستاذ عبد الرحمن مؤيدًا بها وجهةَ نظره، وما أحسب الأستاذ الشرقاوي ألَّا يعلم أنني حريص على العدل الاجتماعي حين يتمثل في أن تضيق الفوارق بين الطبقات، وفي أن يتصدق الغنيُّ على الفقير بوازع من نفسه، وأرفض في الوقت ذاته أن تستوليَ الدولة على كل مال يغلُّ ريعًا للناس فيتأدَّى بنا الأمر إلى ما نتأدَّى إليه في البلاد الشيوعية، وفارقٌ كبير بين أن تندبَ الناس للصدقة وتحثَّهم عليها ليُقدموها بمحض اختيارهم وبين أن تفرض عليهم الفقر فينكشف غبارُ المعركة عن مجتمع كله فقير معدم بدلًا من مجتمع يسوده المرحمة والتوادُّ والتعاطف والحب، فإن الناس إذا أصبحوا جميعًا فقراء سادَت بينهم شريعة الغاب التي نراها سائدة في البلاد الشيوعية.

وأنا أيها الصديق الأعز والذي سيظل دائمًا صديقي الأعز معجبًا بنظام الضرائب التصاعدية، وأحبذها وأراها من أصلح الأنظمة الاقتصادية لمواجهة عصرنا هذا، فلا خلاف بيننا في هذا الشأن.

أما الآيات التي استشهدت بها فهي هي ما قصدتُ أنا إليه، ولا أتصور الحياة بغيرها، وهل يمكن أن يدعوَ الرحمن لغير هذا، وكيف نتوهم أن يوصيَ الله عباده بوصاة خيرًا

من أن يكون في أموال الأغنياء حقٌّ معلوم للسائل والمحروم، وهو الذي بسط الرزق لهم وقدَّره على غيرهم.

وما استشهدت به من أحاديث أيضًا لا خلاف عليه، وهل يمكن أن يكون هناك خلاف بيني وأنا مَن تعرف من دخائله ما لعله يجهله عن نفسه، وبينك في أنه لا يجوز أن يبيت إنسان على شبع وهو يعلم أن جاره جائع، أما ما سُقْتُه عن رأي عثمان من أن الزكاة تكفي فإنني أرى أنها من ناحية الوجوب كافية، ولكنها من الناحية الإنسانية أقل من الكفاية، وما أحسب أن هناك خلافًا على هذا.

أما أن الحاجة فينبغي ألَّا تزيد عما يكفي الأهل والأولاد في حياة عائلهم فقط، فهنا أختلف معك خلافًا لا محيد عنه، فإنه إذا استقر الأمر على ذلك انتفى الميراث وعُدْنا إلى التناقض مرة أخرى، فإنه إذا صح أنه لا ينبغي للإنسان أن يدخر لأبنائه ما يقيهم شرَّ الحاجة من بعده، ويجعلهم في غنًى عن الاستجداء ينتفي الميراث انتفاءً تامًّا، وأنت يا سيدي تقول في صدر مقالك؛ أنا لا خلاف حول الميراث فكيف يكون هذا إذا كنت لن أُبْقيَ لهم من باقية إلا ما أُنفقه عليهم في حياتي؟ وماذا سيرثون إذن؟

أما استشهادك بأبي بكر فاستشهاد بشخصية من قمم التاريخ والإنسانية، وما أظن أن مثله يمكن أن يكون كسائر البشر، وأن ما صنعه خاصٌّ به وحده، وهو صديقُ النبي وصفيُّه وثاني اثنين إذ هما في الغار، أما يا سيدي ما ذكرته عن بكاء عبد الرحمن بن عوف حين اقترب الموت فاسمح لي أن أعجب منه، فقد كان يستطيع بكل بساطة أن يمنح مالَه كلَّه لبيت المال ويكف عن البكاء، أما أن يبكيَ ويُبقيَ على ماله لأبنائه فتصرُّفٌ يدعو إلى الدهشة.

أما ما ذكرته عن مجتمع التراحم فإني واثق أنك لا يمكن أن تتصوره بقهر الناس وإرغامهم على ما لم يشرعه الله، وإن كان هذا رأي بعض الفقهاء فلا شك أن هناك آراء أخرى أكثر قوة تجعل الصدقة بعد الزكاة مندوبة مستحبة وليست حتمية مفروضة كما تريد أن تؤكد، وأن ما سار عليه المسلمون لألف وأربعمائة عام لدليل على صدْق ما أذهب إليه.

أما ما تقوله عن الدول الغنية والدول الفقيرة فإنني لا أتصور الحياة حياة شريفة إلا بما ترى أنت في هذا المضمار.

وأما ما ذكرته عن عمر بن عبد العزيز فهو دليل لي وليس عليَّ، فقد أخذ عمر المال ممن كانوا قد انتهبوه ولم يكن لهم بحق، وردَّه إلى أصحابه الشرعيين، وردَّ إلى بيت المال

ما لم يجد له صاحبًا على قيد الحياة، وهذا أمر يتحتم على وليِّ الأمر وجوبًا، وليس مجرد حق له، وإذا هو لم يفعله ونكص عنه وقع عليه التقصير.

وبعد يا أخي فإن ما ذكرته عن حسن ظنك بي هو وأكثر منه علمي بك، ولولا خشيتي أن يقال إننا انتهزنا الفرصة لنتقارض الثناء لذكرتُ كلَّ ما أُكنُّه لك من حب وتقدير وإعجاب.

على أن رأيك هذا إذا أخذَت به دولة إسلامية ما فإنها لن تطبقَه إلا مرة واحدة في عام واحد، أما العام التالي فإنها بإذن واحد أحد لن تجد عند أي فرد من رعاياها ما يستحق أن يُدفع عنه الزكاة، وما دامت الزكاة قد سقطت فإن الصدقة أيضًا تسقط من باب أولى، وإنك يا أخي لو أعملت الرأي فيما تقول لوجدت أنك به لا تلغي الميراث وحده وإنما تلغي الزكاة أيضًا، وإلَّا فعلى أيِّ مال سيُزكِّي المواطن في عامه التالي ما دام قد دفع بماله الفائض جميعًا إلى الدولة في عامة الفائت، إنه سيكون مستحقًّا لمال الزكاة، ولن يجده أو لَمن يتصدق عليه، وهيهات أن يعثر على متصدق أو صدقة.

أيها التاريخ ترقَّب

سبحانه جل وعلا، له عند اليأس يدُ لطف تردُّ اليأس إلى أمل، وتُحيل ظلام القنوط إلى إشراقة فرحة، وهو سبحانه وتعالى مَن يقول: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۞ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۞ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.

ويكرر سبحانه وتعالى إن مع العسر يسرًا مرتين في بلاغة معجزة لا يَصِل إليها إلا بارئ النفوس. العالم بمداخلها الخبيئة والخبير بأين تستقر الكلمة في الضمائر، وهو سبحانه حين يقول هذا لنبيه عليه الصلاة والسلام لا يقصر قوله عليه وحده، وإنما هو يخاطب الناس كافة والتاريخ بأَسْره.

فكل إنسان أنقض ظهرَه الوِزْرُ يضع الله عنه وِزْره، إيمان يملأ صدره بلطف الله العلي القدير، ثم هو سبحانه يرفع له ذِكْره ويؤيده بالقول الثابت؛ إن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا. فامضِ في غايتك أيها العبد المؤمن، وارغب إلى ربك الذي وضع عنك وزرك، ورفع لك ذكرك، وهيأ لك بعد العسر يسرًا؛ لأن الله سبحانه يتبع عسر المؤمن بيسر من لدنه، تقدست مشيئته.

وقد مرت مصر بعصر أي عسر وتعرَّض شبابنا لفترة من أحلك فترات التاريخ، وقد استقبلوها في مشارق أعمارهم وفي غضارة حياتهم، والعبد أن منهم كانت لا تزال خضرًا غضة، فوضعوا كل ثقتهم في جماعة لا تستحق هذه الثقة، وفجأة تفجرت الحقيقة على نفوسهم الشابة المفعمة بالأمل المترعة بالوثوق فيمن أسلموهم قيادهم عن اقتناع وخبرة، وقد كانوا قد ضربوا صفحًا وأغلقوا أُذُنًا عن كل ما كان يتناقله آباؤهم وإخوانهم الذين يكبرونهم عما يرتكبه العهد من آثام تبدأ بالاعتداء على الأعراض وتنتهي بالاعتداء على الحياة بإزهاقها، وكانوا قد ضربوا صفحًا وأغلقوا أُذُنًا وعينًا عن الرعب الذي تفشَّى وجه

مصر جميعًا مقتنعين في حماسة الشباب أن كل هذا يهون في سبيل مصر، فقد كانوا يظنون أن ما كان العهد يقترفه كان من أجل مصر، وليس من أجل الاستيلاء على مصر، والإلقاء بها ورقة مراهنة لاصطياد الأمجاد الفردية، وإقامة إمبراطورية لشخص في زمان اندثرت فيه الإمبراطوريات؛ حتى إذا رأى الشباب مصر، وقد صرعت كرامتها في عام ٦٧ أفاقوا إلى صُراح الحق، ورفضوا من بعد أن يضربوا صفحًا أو يُغلقوا أُذُنًا أو يغضُّوا عينًا، وهالَتْهم — كان الله لهم — تلك الهُوَّة السحيقة بين ما اقتنعوا به وبين ما طالعتهم به الحقيقة التي ترفض المناقشة وانماعت أمامهم وجوهُ الحياة، وغامست في أعينهم مسالك الطريق، وراحوا يُنعمون النظر فإذا دينهم قد ضاع في غمرة الإلحاد، ووطنهم قد تلاشى في تقديس الأفراد، وقِيَمهم قد انهارت في حماة الشعارات، وإذا الفراغ يُطلُّ عليهم من وراء اللافتات، وكفروا بما وقع عليهم من أقوال يردد أن الولاء سابق على الكفاءة، والولاء هنا لغة كاذبة يعنى في صريحها النفاق، فمن شاء أن يصحح الكذب بالصدق فعليه أن يقول النفاق قبل الكفاءة أو الوطنية أو الإيمان بالله أو بالحرية أو بالكرامة الإنسان.

هكذا تصدَّعت قلوبنا نحن الآباء والأخوة الكبار على شباب هذا الجيل المصري، وحسبنا أنه تاهَ عن مصريته وضل السبيل عن ربِّه وفقد الانتماء لِقيَمه الأصيلة، وما كان لا يعرف الإيمان بالله والحب للوطن أن يكون منتميًا.

وازددنا جزعًا ونحن نرى الدين يُصبح عند بعض منهم سُلَّمًا يصطنعونه إلى مغانم دنيوية، وطريقًا يُزيِّفونه ليستولوا به على الحكم، ورأينا فئاتٍ منهم تغلوا في دينها غلوًّا ينأَى بها عن الدين في جوهره وروحه، ويدنو بهم إلى مظهر لا يعني إلا الفراغ من لحية تطلَق، أو جلباب أصبح كأستار مسرح للمضحكات التي لا جد فيها ولا عمق. ويزداد بنا الجزع ويبلغ أقصى مداه في نفوسنا حين نرى فئة أخرى يخدعها الشيوعيون عن أديانهم وعن عروبتهم ليقذفوا بهم إلى متاهات ماركس ولينين وإلى مذابح ستالين وماو.

ولكن الله سبحانه وتعالى يمدُّ من فوق سبع سماوات يدَه باللطف الرباني فيرفع عنَّا وعنهم وزرنا ووزرهم الذي أنقض ظهورنا وظهورهم، ويرفع بذكر مصر وذكرهم. ونلتفُّ فجأة فنجد مصر على حقيقتها تموج بالحياة في نفوس الأصلاء من شبابنا، أولئك الذين لا تعرف الأرض مفرقهم إلا مصلين، فهم شُمُّ الأنوف عامرة أفئدتهم بالإيمان برب العالمين مخضلة جنبات جوانحهم بحب مصرهم العالية، فإذا هم يزحفون زرافاتٍ ووجدانًا إلى قلعة صلاح الدين، ومسجد محمد علي ليُعيدوا إليها وإليه رونق مصر وجلال الإيمان.

إن الشباب الذي عمل في صمت ولكن في عزم يعيد الزخرف إلى الآثار التي هُدمت والمتاحف التي احترقت وإلى المساجد التي دُمرت، أن يعيد بشبابه الشباب إلى مصر، وبجمال روحه الجمال إلى وجه مصر، وبعزمه الفتوة إلى عزمات مصر، وبفنِّه الريادة إلى فن مصر. أراد الشباب وفعل.

إذن فذاك هو الشباب الذي أحزننا بعضٌ منه بمظهره، ها هو ذا يتكشف لنا عن أصوله ويزيح عن حقيقته الباذخة ما ألصقه بها التافهون منهم والضائعون والمضيعون.

هذا الشباب الذي وقف الأيام الطوال والشهور المتلاحقة على الهواء ليزيح عن آثار مصر ما أفسدته أزمان مقيتة، أزاح في ذات الوقت عن نفسه سوء الظن به الذي رماه عليه فئة منه قليلة قلة الاستثناء الذي يؤكد القاعدة، والقاعدة هنا عملاقة تقف رءوسها عالية مع المآذن التي عاد إليها الله أكبر الله أكبر ولا إله إلا الله، ومحمد رسول الله.

إن هذا الشباب هو مصر القادمة. فأصبح أيها التاريخ أن مصر المؤمنة بالله وبالشرف وبالحق والحرية قادمة إلينا في الطريق، وقد بدَت منها الطلائع كإشراقة فجر في يوم ربيع.

إن هذا الشباب الذي عرف الله والوطن والجمال لن يعرف الرشوة الكافرة، ولا التجارة الشائنة، ولا الخنوع القليل. إنه غد مصر أيها التاريخ ... فترقب ... إنه كلمة الله ووعده الحق، إن بعد العسر يسرًا. إن بعد العسر يسرًا، إن بعد العسر يسرًا. فاللهم شكرًا لك على ما شرحت من صدورنا وما وضعتَ من أحمالنا، وما رفعت من ذكرنا واللهم غفترى هذا البلاء الذيرانك لنا حين تولانا اليأس في عسرنا وحين نسينا إن بعد العسر يسرًا.

هنـــداوي